الميزاب الذهبي

ALTINOLUK

بذور الخير

مجلة تصدر كل شهرين- العدد الرابع والعشرون (كانون الثاني - شباط ٢٠١٨)

الإسلام ينظر إلى مجتمعه على أنهم لبنات الجدار الواحد، وأعضاء الجسد الواحد، فكونهم لبنات الجدار الواحد يعني توحدهم، وتماسكهم، وسلامتهم؛ وأما كونهم أعضاء الجسد الواحد فيعني تنبههم لحياة بعضهم، والإحساس بآلام وأوجاع بعضهم، ومن ثم الامتناع عن الأمور التي من شأنها التسبب بالألم للغير. وينبغي أن يكون الوعي بوحدة الجسد موجوداً في كل عضو من أعضائه.

تربية النفس للجماعة

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة القرآء:

حينما نقلب النظر فيما حولنا هذه الأيام، نجد أنه ثمة سعي حثيث لتغيير نظرة الناس إلى هذه الحياة الدنيا، حتى يرونها الحياةَ الحقيقية السرمدية، وكأن لا آخرة بعدها، وفي هذا السعي تتخذ الأفكارُ المجردة من الإيمان كالليبرالية والمادية والرأسمالية وسيلة لتحويل قناعات الناس ورؤاها، وما يؤلم الإنسان ويحز في نفسه أنَّ تلكم الأفكار المسمومة ينفثها التلفاز و(الإنترنت) وغيرهما الكثير والكثير من وسائل النشر والاتصال الحديثة، وتطالع الناس في كل زاوية من زوايا الحياة اليومية صباح مساء.

ولذلك بتنا نرى الفقرَ إلى الروحانيات والعوز إلى الإيمان يشيع في كل مكان، حتى في المجتمعات التي تتربع على عرش الرفاهية المادية والتقدم المادي، فإن الإنسان إذا لم يستطع حلَّ لغز الحياة، ومعرفةَ حكمة الوجود، واستشفاف سر الموت وما وراءه، وغيرها من الموضوعات الجوهرية على ضوء الحقائق الإلهية، فستتحول غفلته في هذه الحياة واستغراقه في ملذَّاتها سعادةً وطمأنينة.

ووا أسفاه على تلك العقول والأفئدة التي تميل مع رياح العولمة الطاغية حيث مالت، ولهذا كله فلا بد أن نوفي بالدَّين الذي يوجبه علينا إيماننا ووجداننا، دَين الأخذ بيد الإنسانية التي ألقت بنفسها في دوامة الدنيا، فصارت كجذوع الأشجار حينما تجتثُّها السيول؛ وفي أعناقنا كذلك دَين الحفاظ على ما اؤتمنا عليه من الكتاب والحكمة. فينبغي لنا تبيين الكتاب وشرح الحكمة وتعريف الحضارة والسعادة الحقيقية وذلك بإظهار الوجه الحقيقي للإسلام.

وأما إن سألتم عن تلكم الروح التي ستُحيي المجتمعات التائهة في هذه الأيام، فليست روح أولئك الذين يؤثرون أنفسهم على غيرهم، ويدَّعون العلم، وينكبُّون على كتب الفلسفة الجِسام؛ بل إنها روح المؤمنين العارفين الذين تدبَّروا وتفكروا في الحِكَم الإلهية المعروضة في القرآن والكون والإنسان، فكانوا كشمس الرحمة والطمأنينة تُشرق على القلوب التي ما فتئت تائهة في ظلمات الجهل والأوهام، وترى الناس اليوم يبحثون عن السعادة في سوق السفالة والتعاسة لأنهم حُرِموا من تلك الروح، فصار كل واحد منهم كرجل آليٍّ تتحكَّم بإرادته فلسفاتٌ متهافتة، و صرعات جديدة لا قيمة فيها ولا نفع...

مع أن الإنسان ليس كغيره من المخلوقات، فلقد أكرمه الله بخصال سامية ومنَّ عليه بنعمة العقل، فعليه إذًا أن يكون دائم التفكر والتدبر، فيسأل نفسه: لِم أتيت إلى هذه الدنيا؟ وفي مُلكِ من أعيش؟ ومِن أين جئت وإلى أين المصير؟...

الميزاب الذهبي

مجلة تصدر كل شهرين

العدد الرابع والعشرون
(كانون الثاني – شباط ٢٠١٨)

رئيس التحرير
بيت اللهّ دميرجي اغلوا

مدير التحرير
حسام يوسف

هيئة التحرير
بيت اللهّ دميرجي اغلوا
حسام يوسف
آدم أزدمير
د. مراد قايا

التصحيح والتدقيق اللغوي
أ. حسن مرشد
د. إسراء

التصميم والتنضيد والاخراج الفني
حسام يوسف

إدارة المجلة.
Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60 / 3C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Tel: +90 212 671 07 00 Faks: +90 212 671 07 48

دار النشر والطباعة
Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60 / 3C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Tel: +90 212 671 07 00 Faks: +90 212 671 07 48

الإشتراك
لكي تصلكم المجلة بشكل دوري
يمكنكم الإشتراك سنوياً بمبلغ ٣٠ دولار

كما يمكنكم المساهمة بإرسال المقالات والملاحظات على عناوين المجلة
للمراسلة
almizab2011@hotmail.com
almizab2011@gmail.com

المحتويات

٣

تربية النفس للجماعة
أحمد طاش غَتيرن

١٠

إذا غذت الإنتماءات النفس وليس القلب
د. آدم أركول

٢٨

التصوف -٣-
الأستاذ: عثمان نوري طوبّاش

٣٨

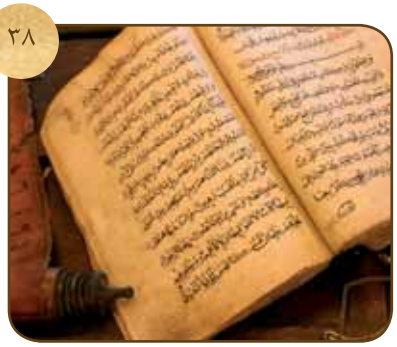

التربية المعنوية في عصر السعادة
آدم سراج

كلمة التحرير	١
تربية النفس للجماعة	٣
الذين يحبهم والذين لا يحبهم الله	٨
إذا غذت الانتماءات النفس وليس القلب	١٠
العدالة	١٤
التصوف والتحكم بالأنانية	١٥
السعادة صعبة التحقيق	١٨
نصرة المظلوم	٢٢
الظالمون لأنفسهم	٢٦
معرفة الله ﷻ	٢٧
التصوف -٣-	٢٨
حق الأمل	٣٦
التربية المعنوية في عصر السعادة	٣٨
المحبة الأدبية والأبدية	٤١
جبير بن مطعم رضي الله عنه	٤٤
المعراج رمز التسليم	٤٦
نقطة السويداء -٦	٥٠
فسائد العقائد يقود إلى جهنم	٥٤
ثلاث عجائب	٥٦

ملاحظة: المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

تربية النفس للجماعة

أحمد طاش غَتيرن

هناك مقولة شعبية شائعة بين الناس تقول: "من لا تعجبه نفسه يموت هماً وكمداً". فسعادة الإنسان يمكن أن تتحقق بشكل ما من خلال رضاه عن ذاته أيضاً. ويمكن أن يُسمى ذلك ب "الطاقة الإيجابية". فالطاقة الإيجابية من أساسيات التفاؤل، والطاقة السلبية من أساسيات التشاؤم... فالإنسان الذي لا يرضى عما يفعله يستحيل عليه صعود الجبال وبلوغ القمم.

والأمر ذاته ينطبق على المجتمعات والجماعات.

إن الإنسان مفطور منذ ولادته على العيش الجماعي.حيث الدافع الموجود داخل الإنسان نحو الحياة العائلية، والعيش بحالة جماعية مع الآخرين من أمثاله من البشر هو توجيه وفطرة إلهية. وقد شهد التاريخ الإنساني على مر العصور تطوراً متصاعداً باتجاه الحياة المشتركة والجماعية.

وإذا سألنا مؤرخي الحضارة والمدنية ما هي الطاقة الإيجابية التي تدفع المجتمعات نحو التقدم، والصعود، والارتقاء؟، يمكن أن نرى إجابات كثيرة ومتنوعة.

فيقول العالم الإسلامي ابن خلدون الذي يوصف أنه أب مؤرخي الحضارة: "العصبية أساس الحضارات". فيمكن أن نعتبر ذلك على أنه الطاقة الإيجابية التي ترتقي بالمجتمعات. فما هي العصبية؟

يمكن تفسير العصبية على أنها ارتباط مفعم بالعشق، والطموح والحماس الشديد. أو ربما الثقة بالنفس. أو إدراك قوة الأنا والذات.

وإذا تساءلنا: أي شيء هذا، وما هي ماهيته؟ فيمكن القول: إنه تراكم داخلي لخليط من المشاعر والأحاسيس مثل: "إن ما تبحث عنه هو أنا، وجماعتي، وأمتي، ومبادئي. إن البشرية تنتظرني أنا".

إن الجماعة التي تمتلك مثل هذه الطاقة الداخلية سواء كانت شعباً، أو جماعة أيديولوجية، أو ذات توجه ديني، أو أسرة، أو مؤسسة تجارية- صناعية هي جماعة تنظر إلى كل شيءٍ بين يديها أو تصل إليه على أنه شيءٌ مصيري لا غنى للإنسانية كلها عنه. والجماعة التي يكون هذا حالها تكون قد حصلت على الطاقة الداخلية للارتقاء والصعود.

يمكن أن نطبق هذا التقييم أيضاً بشأن الجماعات التي التقت مع بعضها من أجل الخدمات الإسلامية. فكل كيان من الكيانات الإسلامية مثل الطرق، والجماعات، ومؤسسات المجتمع المدني وغيرها يتشكل للنهوض بخدمة إسلامية، ونيل رضا الله تعالى من خلال ذلك. فكل منها يتصور أن هناك فراغاً في الميدان الذي سوف يعمل وينشط فيه، ثم يؤمن أنه سيملأ ذاك الفراغ، وربما يعتقد أنه سيقوم بالأفضل في ذاك الميدان على أساس مبدأ "التسابق في الخير والإحسان". أو ربما يحمل قناعة مفادها: ربما بإمكان الآخرين أيضاً القيام بأعمال الخير والإحسان والصلاح، إلا أن عزمي على عمل الأفضل قد يثير الهمم ويفتح الطريق أمام ازدياد الخير المشترك.

وكل هذا – إذا ما عدنا إلى ما قاله ابن خلدون أن العصبية أساس الحضارة/ المدنية – يشكل مصدر "العصبية الإيجابية" التي يمكن أن نصفها بالطاقة الإيجابية.

إن عصر تراجع المجتمعات وسقوطها وانهيارها وتفتتها يصادف فترات انطفاء جذوة العصبية، وتراجع الحماس والطموح، وفقدان الرغبة بالانطلاق، وتشتت الوعي بالذات، وضعف الثقة بالنفس، وضياع المهمة والهدف والرسالة. وهذا يعود لأسباب عديدة: عدم امتلاك الجيل الجديد لحماس ورغبة الأجيال السابقة، والعجز عن الرد على التحديات، وعدم استجابة القيم التي يمتلكونها لتطلعات العهد الجديد.

وأحد أبعاد العصبية أيضاً هو صفتها الإلغائية تجاه الآخرين إلى جانب الثقة بالذات. وفي الواقع فإن كل عصبية تحمل في طياتها بشكل ما نواة "إقصاء/ نبذ الآخر". فالثقة بالنفس تتحقق دائماً بإجراء مقارنة قليلة مع الآخر. ومن ثم فإن في كل عصبية قليل من تحكيم "الأنا".

عندما يثير الإسلام الحماس لدى كل الشخصيات والمؤسسات والكيانات التي يشكل بنيتها الأساسية بأمور مثل "التسابق في الخيرات"، و"لوجه الله"، فإنه من جهة أخرى يحرص على تنمية إحساس عال بالمسؤولية لدى أتباعه، والمتمثل بمراعاة "حقوق الآخر"، وعدم الاعتداء عليه، وتجنب إعاقة مسيرته نحو الخيرات.

الإسلام ينظر إلى مجتمعه على أنهم لبنات الجدار الواحد، وأعضاء الجسد الواحد، فكونهم لبنات الجدار الواحد يعني توحدهم، وتماسكهم، وسلامتهم؛ وأما كونهم أعضاء الجسد الواحد فيعني تنبههم لحياة بعضهم، والإحساس بآلام وأوجاع بعضهم، ومن ثم الامتناع عن الأمور التي من شأنها التسبب بالألم للغير. وينبغي أن يكون الوعي بوحدة الجسد موجوداً في كل عضو من أعضائه.

والإسلام ينظر إلى أفراده على أنهم لبنات الجدار الواحد، وأعضاء الجسد الواحد، فكونهم لبنات الجدار الواحد يعني توحدهم، وتماسكهم، وسلامتهم؛ وأما كونهم أعضاء الجسد الواحد فيعني تنبههم لحياة بعضهم، والإحساس بآلام وأوجاع بعضهم، ومن ثم الامتناع عن الأمور التي من شأنها التسبب بالألم للغير. وينبغي أن يكون الوعي بوحدة الجسد موجوداً في كل عضو من أعضائه. وهذا

يعني أن يحفظ الدماغ والقلب، وكافة الأعصاب والأوعية والشعيرات المرتبطة به في بوتقة "وعي الأنا الشمولي".

وكما جاء في القرآن الكريم أمور تشير إلى وحدة المسلمين، مثل: "إنما المؤمنون إخوة، وأمة واحدة؛ وأن الله ألف بين قلوبهم"، فإن هناك دعوات وتحذيرات من مسائل مثل"تقطيع الدين وتمزيقه وتفريقه إلى شيع وفرق وطوائف وأحزاب مثل الذين سبقوا، وكل فرقة وحزب يفرح بما لديه..." والتي ترمي إلى ترك العصبية السلبية التي من شأنها إذا ما سادت أن تتحول إلى دودة تنخر في بنية وجسد المجتمع الإسلامي.

وثمة في القرآن الكريم تحذير شديد اللهجة من "اتخاذ الهوى إلهاً". حيث يرد على شكل تساؤل:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ؟﴾ (الفرقان: ٤٣) ثم يأتي الرد والحكم في الآية التالية بقوله:

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا﴾ (الفرقان: ٤٤)

إن سبب انحراف الإنسان وهبوطه إلى مرتبة الحيوان بل وأضل وأسوأ منه هو اتخاذه الهوى إلهاً بإرادته وعن وعي وإدراك.

واتخاذ الهوى إلهاً هو سير الإنسان خلف "الأنا" وجعلها وثناً وصنماً دون إدراك ذلك. وإن الأنا هي حِمْلٌ على كاهل الإنسان الذي لا طاقة له على حمله. وعصبية الأنا هي مكوِّن الأنا الأكثر تعرجاً واعوجاجاً. وإن وصول العصبية إلى هذا المدى سوف يدفع الإنسان للاصطدام بالقدرة الإلهية حتى وإن سيطرت عليه لمدة قصيرة وانحرفت به وأخذته في طريقها، ومن ثم سوف يرزح ويُسحق تحت ثقل المسؤولية التي حُملها.

ومهما بلغ اتخاذ الإنسان الفرد "إلهه هواه" من سوء، فإن النتائج التي تترتب على اتخاذ المجتمع "هواه إلهه" يكون أكثر كارثية وسوءاً وفظاعة.

إن تربية النفس نظام تأديبي وانضباطي معروف. ويتم تناولها بشكل عام بالبعد الفردي.

للإنسان نفس، وللنفس بنية أمارة بالسوء. فيجب إخضاعها للتربية والتزكية حتى تتجاوز مراتبها الأمارة، واللوامة، والملهمة وتصل إلى مراحل المطمئنة، والراضية والمرضية. وهكذا تتخلص من شتى أشكال الانحراف والضلال مثل "اتخاذ الهوى إلهاً" وغيرها، وتتشرب ب "شعور العبودية" وتنال الخصلة التي تؤهلها لخطاب "ادخلي في عبادي وادخلي جنتي".

إن الإنسان حسب البيان القرآني في سورة العلق ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ سريع الطغيان عندما يجد نفسه مستغنياً. وإن الاستغناء هو الخطوة الأولى على طريق اتخاذ الهوى إلهاً. وجوهر تربية النفس هو تلقيح الإنسان بشعور العبودية، أي الصعود به إلى مرتبة يشعر ويدرك فيها أن وجوده وكل ما يملك إنما هو بكرم ولطف من الخالق سبحانه وتعالى. ففي تربية النفس يُعلم الإنسان وعياً مفاده: أيها الإنسان! إنك تستعمل القدرة التي حباك الله تعالى إياها، فاستعملها ضمن الحدود التي بينها لك، وإلا فأنت متعد لحدوده، ومسؤول أمامه".

إن التجمعات، والجماعات تقود من ينتظم في ظلالها إلى أوهام أكبر وأعظم خطورة. ف "الاستغناء" يكون محتملاً بالنسبة للجماعات بدرجة أكبر. وفي الواقع فإن الناس يميلون إلى تكوين جماعات لتجاوز بعض نقاط الضعف التي يشعرون بها.

ثم إن الجماعات في النهاية تنال شيئاً من المكنة والقوة، وإن تلك القوة تثير النفس فتطل برأسها، فتظهر ضرورة لتربيتها.

ولا ريب أن القيام بهذه التربية الضرورية وتطبيقها على أرض الواقع أصعب وأكثر مشقة من تربية نفس الفرد الواحد. وكما أن لتربية النفس أهمية كبيرة بالنسبة لعلاقة شخصين فيما بينهما ضمن الجماعة ذاتها، فإن لها أهمية أكبر بالنسبة لعلاقة المئات من الأشخاص فيما بينهم، وعلاقتهم مع الآخرين خارج الجماعة.

نعلم أن تطبيق الحكم القرآني "إنما المؤمنون إخوة" داخل المجتمع الإسلامي، وبيان أن الوحدة مرتبطة بتكون "وعي الأخوة" في قلوب المؤمنين لم يكن بالأمر السهل واليسير.

هناك حقيقة نشاهدها في كل زمن، وهي: لا مفر من لجم النفس وضبطها كلما كان هناك تقاسم وتشارك في أمر ما، كي لا يتاح لها التدخل، وكي يُسد الطريق أمام المظالم والاعتداء على الحقوق.

حسناً؛ إذا أمكننا قراءة الآية القرآنية التي تتناول أخوة المسلمين بالصيغة الآتية: "إنما الطوائف/ الجماعات الإسلامية كلها إخوة"، فإلى أي مدى نجدها مطابقة للواقع؟. إن الآية وإن كانت تضع أمامنا هدفاً واحداً، إلا أن مصاعب وضعها موضع التطبيق بين أفراد المؤمنين وبين الجماعات المؤمنة معروفة للجميع ولا تخفى على أحد.

إن المطامح والرغبات قد تكون محدودة على الصعيد الفردي، ولكن بما أن الأهداف والمطامح تتوسع وتتعاظم عند تشكيل جماعة فإن ميادين التقاسم والتشارك سوف تتسع أيضاً، ومن ثم فإن ما أسميناها "نفس الجماعة" قد تتجه لاستخدام قوة أكثر تدميراً وسحقاً وعدوانية للوصول إلى أهدافها.

وهنا تظهر أهمية وضرورة "تربية نفس الجماعة".

ترد في القرآن الكريم إشارات إلى أمثلة نموذجية كيف أن " نفس الجماعة" توجه الإنسان لاستخدام القوة والحصول على النتيجة المستهدفة. فأحد هذه النماذج يتعلق بعالم المشاعر والأماني الداخلية للمشركين. حيث تقول الآية القرآنية:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر: ٤٤-٤٥)

ويشير القرآن الكريم في آية أخرى إلى الخطأ الذي ساد في عالم مشاعر المؤمنين الذين كانوا في جيش النبي ﷺ في حنين، حيث يقول البيان الإلهي:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (التوبة: ٢٥)

فالمؤمن يعلم أن مصدر القوة التي يستخدمها من الله تعالى، ويدرك إدراكاً تاماً أن لا أحد قادر على استعمال هذه القوة بخلاف أو رغماً عن إرادة الله تعالى. وعند استعمال القوة لا يخرج عن الحدود والمعايير التي حددها الله عز وجل.

"فلا حول ولا قوة إلا بالله".

> في الإسلام كل ما يمكن قوله ضمن إطار قانون الأخوة بالنسبة للفرد، يمكن قوله تماماً بالنسبة للجماعة أيضاً.
>
> فالحدود والمعايير الموضوعة التي تأتي على شكل الحث على التصرفات والأفعال المعززة للأخوة، ومنع التصرفات والأفعال المفسدة لها تنطبق كما هي على العلاقات القائمة بين الجماعات أيضاً.
>
> ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم:٣١-٣٢)

كما أن كل فرد من الناس يقول "إنا لله وإنا إليه راجعون"، فإن كل شكل من أشكال الجماعات أيضاً سوف تكون ملتزمةً بمهمة "في سبيل الله"، وتتحرك على ضوء تلك المهمة، وبالاتجاه الذي يؤدي إلى تحقيقها.

يمكن القول بصدد معالجة نفس الجماعة:

في الإسلام كل ما يمكن قوله ضمن إطار قانون الأخوة بالنسبة للفرد، يمكن قوله تماماً بالنسبة للجماعة أيضاً. فالحدود والمعايير الموضوعة التي تأتي على شكل الحث على التصرفات والأفعال المعززة للأخوة، ومنع ما يفسدها تنطبق كما هي على العلاقات القائمة بين الجماعات أيضاً.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾

(الروم: ٣١- ٣٢)

ينبغي مراجعة العلاقات القائمة بين المسلمين جميعاً، من شعوب، وقبائل، ودول، وطرق، ومذاهب، وطوائف، ومؤسسات المجتمع المدني، وإعادة تحليلها ودراستها من جديد، ومن ثم القيام بما يلزم لوضعها في المسار الذي يرضي الله تعالى. وذلك لأن التصرفات والمواقف الصادرة سواء على صعيد الدول، أو على صعيد المؤسسات والكيانات الدينية تشير إلى عطل وخلل جدي وخطير في نقطة الإجابة عن سؤال: لأجل من، وفي سبيل من؟.

ففي النهاية إن كان هناك وضع مثل "اضطهاد المسلمين"، وكان المشهد العام السائد يرينا أن "المسلمين يضربون رقاب بعض"، فهذا يعني أن هناك مشكلة خطيرة في مسألة كون الأعمال والمواقف والسياسات "في سبيل الله".

إن كانت هناك مشكلة صادرة من أحدنا، أو لدى أحدنا لا بد أن نحاول جهدنا قبل اتهام ومحاكمة الغير في أن ننظر إلى أنفسنا والإجابة على السؤال الآتي: ماذا لدي من أمور لا يرضى الله عنها؟ بقلب صريح ومفتوح وكأننا واقفون وسط أرض المحشر، وبين يدي الله ﷻ؛ أي الإجابة صراحة دون مناورة أو إخفاء.

من الواضح أن في عالمنا وضعاً يعتريه الخلل، وغير سليم وصحيح، ولا يدعو للاطمئنان.

وإن كان الوضع القائم هو "حرب الإسلام مع الإسلام" فينبغي أن نعيد النظر إلى ما في أيدينا من حجارة، وأسلحة، أو إلى كل ما يجري في قلوبنا من مشاعر وأحاسيس، ونتساءل: إلى من أوجه هذه اللكمة الممزوجة بالغضب والعنف ولم؟، وعلى من هذا الحقد الأعمى، ومن أستهدف بهذه الرصاصة، وماذا سيقول لنا الله تعالى وهو ينظر إلينا؟!

لمَ وجدنا، ولم اجتمعنا في هذا العالم؟ وهل المكان الذي سنقف فيه غداً سيكون بين يدي الله ﷻ، أم في عتبة صنم الهوى؟.

العلاقات بين المؤمنين منظمة وقائمة على أساس الأخوة. حيث يقول البيان الإلهي في سورة الحجرات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١)

يوميات
القرآن الكريم

جعفر دورموش

الذين يحبهم والذين لا يحبهم الله عزّ وجلّ

يقول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ والله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران)

كلما أقرأ هذه الآية المباركة اليوم أشعر أن الجملة الأخيرة منها تشرق على قلبي من جديد. فأرى أن نضع أمامنا من يحبهم الله ومن لا يحبهم دفعة واحدة. إذ أني أنظر فأجد أن المولى ﷻ يخبرنا عن الذين يحبهم ورضي عنهم، وعن الذين لا يحبهم وغضب عليهم، ليرينا طريق رضاه، ويحذرنا من غضبه.

حيث ترد في مختلف الآيات القرآنية عبارات:

﴿إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)

﴿إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٤)

﴿والله يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦)

﴿إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩)

والآيات التي تتحدث عن العباد الذين رضي الله عنهم هي:

﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (المائدة: ١١٩)

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ...﴾ (التوبة: ١٠٠)

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ...﴾ (المجادلة: ٢٢)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ. جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ...﴾ (البينة: ٧-٨)

في الواقع إذا نظرنا هنا إلى صفات "الذين أحبهم الله ورضي عنهم" فإننا نجد كل الخصال الجميلة والحسنة والإيجابية التي ينبغي أن تتوفر في المسلم. نجد الأخلاق الإلهية. نجد أخلاق الأنبياء الذين قيل بحقهم: كان من "المحسنين"، وكان "أواهٌ حليم"، و "نعم العبد".

نجد الفضائل التي نسجها خيطاً خيطاً الأسوة الحسنة ﷺ الذي يُعد بمثابة خلاصة جميع الرسل والأنبياء والصالحين الذين سبقوه. حيث أن قوله ﷺ:

"إن الله يحب العبد التقي، الغني، الخفي" (مسلم، الزهد، ١١)

وقوله ﷺ لأشج عبد قيس رضي الله عنه:

"إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة" (مسلم، الأمر بالإيمان، ٢٥- ٢٦)

هو من جملة هذه الحقائق القرآنية.

وأما الآيات التي تبين الذين لا يحبهم الله تعالى وغضب عليهم فهي:

﴿إِنَّ الله لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٦)

﴿إِنَّ الله لَا يُحِبُّ الْمعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠)

﴿والله لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥)

﴿والله لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة: ٢٧٦)

﴿فَإِنَّ الله لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ٣٢)

﴿والله لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ٥٧)

﴿لَا يُحِبُّ الله الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ الله سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٤٨)

﴿إِنَّ الله لَا يُحِبُّ الْمعْتَدِين﴾ (المائدة: ٨٧)

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمسْرِفِينَ﴾ (الأنعام: ١٤١)

﴿إِنَّ الله لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (الحج: ٣٨)

﴿إِنَّ الله لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦)

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ ...﴾ (النساء: ٩٣)

﴿وَيُعَذِّبَ الْمنَافِقِينَ وَالْمنَافِقَاتِ وَالْمشْرِكِينَ وَالْمشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بالله ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ﴾ (الفتح: ٦)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ ...﴾ (المجادلة: ١٤)

﴿مَنْ كَفَرَ بالله مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ الله...﴾ (النحل: ١٠٦)

وقال رسول الله ﷺ في هذا الصدد:

"ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم:

شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر" (مسلم، الإيمان، ١٧٢)

فهذه أيضاً خصال وأحوال وأعمال الذين يتعرضون للخسران الأبدي مثل فرعون، وقارون، وهامان. فينبغي الحذر من الاقتراب منهم والتشبه بهم، أو تقليدهم. وأما الأمور التي تُذكر صراحة هنا فيمكن معرفتها بالقياس، وسؤال أهل العلم. وباختصار؛ يجب تحديث هذه القائمة ومراجعتها بين الفينة والأخرى.

وأود إنهاء هذه السطور بالدعاء الآتي:

يا رب! أحببنا بمن تحبهم! وأبغضنا بمن تبغضهم! وأوصلنا بمن توصلهم!

آمين.

إذا غذت الانتماءات النفس وليس القلب

د. آدم أركول

إن الإنسان بمقتضى فطرته يشعر بالحاجة إلى نسبة ذاته لجماعة ما. وهذا الأمر حاجة فطرية في غالب الأحيان. إذ أن الإنسان ضعيف لوحده، والضعف يجلب العجز. فيرغب باللقاء مع الآخرين والاجتماع بهم للحصول على القوة والصمود أمام الأخطار. وإلا تسيطر على ذاته مشاعر الزوال والفناء. وأحيانا يرغب الإنسان بالدخول إلى جماعة لأسباب أخرى سعياً وراء دوافعه الإيجابية أو السلبية، مثل: تطوير ذاته معيشياً أو علمياً، والنجاح في العمل، وتحقيق أهدافه، والوصول إلى السلطة والحكم وغيرها. فالوقائع والاحتياجات النفسية والاجتماعية تجبر الفرد على هذا الأمر.

إننا بين الفترة والأخرى نتبنى انتماءات مختلفة. حيث تقتحم حياتنا انتماءات كثيرة يصعب حصرها مثل: الانتماء للعائلة، والانتماء للمدرسة، والانتماء للموطن، والانتماء للدولة، للعرق، للدين، للمذهب، للطائفة، للطريقة، للفريق، وللحزب، والجماعة وغيرها كثير.

وإننا نجد أنفسنا ضمن قسم من هذه الانتماءات من حين ولادتنا دون إرادة منا. وأما القسم الآخر من الانتماءات فنجد أنفسنا فيها أيضاً بصورة طبيعية بحكم عادات وتوجهات المجتمع الذي نتبعه ونعيش فيه. وهناك انتماءات نختارها بإرادتنا وعن وعي تام، كأن نسعى للعضوية في جماعة أو حزب ما.

إن كل إطار أو بيئة نشعر بالانتماء إليها تضيف جملة من القيم والفوارق الجديدة المختلفة إلى شخصيتنا، وأفكارنا، وأحاسيسنا. حيث تبدأ نظرتنا للحياة، ومعايير تقييمنا للأحداث والوقائع، وأفراحنا وأحزاننا بالتقولب والتشكل وفق الجماعة التي ننتمي إليها.

الانتماء حقيقة من حقائق الحياة. واختيار الجهة التي ننتمي إليها، ولم ننتمي؟، وكيف انتمينا، أو ما الذي يستوجب انتماءنا خيار في غاية الأهمية. وبناء على ذلك فإن انتماءاتنا كما أنها قد تغدو وسيلة لصلاحنا وتطورنا نحو الأفضل، فإنها قد تصبح أداة لانحرافنا وإفساد حياتنا بشكل أكبر أيضاً.

ف"الأنا المستكبرة" التي أطلت برأسها وثارت بداخل شخص واحد لم يخضع للتربية والتزكية، وتجاوز حده وطغى قد تسببت بمظالم وكوارث لا حصر لها عبر التاريخ، وهذه حقيقة لا تخفى على كل صاحب بصيرة. فكيف إذا اجتمعت عدة أنفس من هذه الشاكلة مع بعضها! ويكفي لإدراك المخاطر والمظالم المتوقعة منها إلقاء نظرة على ما أحدثته النفس الطاغية الواحدة من كوارث وانحرافات. وبناء على ذلك نقول كما أن هناك حاجة لإخضاع نفس الفرد للتربية والتزكية، فكذلك هناك ضرورة ملحة لإخضاع "نفس الجماعة" التي يُحتمل تشكلها وبروزها لدى الجماعات، إخضاعها للتربية، وتوجيهها نحو الاتجاه السليم. وإن "نفس الجماعة" بحاجة ماسة إلى تربية وتزكية إضافية ومستقلة حتى في الجماعات التي خضع أفرادها أو يخضعون للتربية والتزكية. وإلا فإن "أنا الجماعة" سوف تنمو وتتطور وتكبر حتى تتحول مع الزمن إلى وحش كاسر. وفي ظل هذا الوضع فإنه حتى معاهد ومراكز التربية سوف تعجز عن القيام بمهماتها ووظائفها. وتبدأ الأنفس في هذه الأجواء بالتضخم والتمدد والتكبر بشكل مختلف. وتتحول دون شعور بذلك عن رحلة أحسن تقويم، لتركب طريق رحلة أسفل سافلين.

لا ريب أن تحذير أعضاء الجماعة وتنبيههم لحيل ودسائس نفس الجماعة، والسير بالجماعة نحو هدف صحيح ومشروع وإخضاع أفرادها للتربية في هذا المجال من مسؤولية قائد الجماعة بالدرجة الأولى. إلا أن هذا لا يعني أن أعضاء الجماعة ليس عليهم مسؤوليات في هذا الشأن. ولعل على أعضاء الجماعة إذا رأوا منكراً مسؤولية النهي عنه ومنعه، وإزالته.

إن الميادين التي تتطلب التربية بشكل خاص بالنسبة ل"نفس الجماعة" هي:

١. تربية المحبة، والارتباط، والطاعة اللامحدودة

لا شك أن انتماء الشخص إلى جماعة ما بإرادته ورغبته هو نتيجة طبيعية لما يشعر به تجاه تلك الجماعة من إعجاب، وثقة، ومحبة. وفي الواقع فإن الشخص لا يُعد عضواً حقيقياً للجماعة التي لا يشعر بالمحبة والود تجاهها. وأما درجة الإعجاب والمحبة فتشكل عمق الارتباط، ومستوى وقوة التأثر. ويكون العضو مستعداً لتقديم مختلف التضحيات ومواجهة شتى المخاطر والتحديات في سبيل الجماعة. وهذا الأمر ضمن نطاق الأهداف والغايات المشروعة لا يثير الاستغراب أبداً، بل على العكس، إذ أن مثل هذا الارتباط جدير بالغبطة. فليس من الخطأ أبداً أن تكون المحبة التي يكنها الإنسان لجماعته، وحزبه، ومدرسته، وطريقته، وقائده أكثر مما يكنها لغيرهم. وإنما الخطأ هو إقصاء الآخرين ونبذهم، أو احتقارهم والإساءة إليهم. إن المحبة المفرطة قد تتسبب مع مرور الزمن بالتعصب الأعمى، وهذا أحد أمراض الجماعة. إذ أن الولع بشيء ما بدرجة مفرطة يجعل المرء بحالة وكأنه أصم وأعمى. فقد تتغلب لديه آراء جماعته أو قائده على كل ما سواها، ويعتبرها دون تبصر عين

إن قول الصحابي لعمر رضي الله عنه: "والله يا أمير المؤمنين! لو رأيناك اعوججت عن الطريق هكذا لقلنا بالسيوف هكذا" إلا نتيجة للتربية التي تلقاها في مدرسة التربية النبوية. فليس من حق من لا يعدل بين الناس ويراعي حقوقهم المطالبة بطاعته وتسليم الأمر، فلا طاعة لمن لا عدل له.

الحق والحقيقة، بدلاً من تمحيص الأمور والوصول إلى الحق والحقيقة بالعقل السليم والنقل الصحيح (القرآن والسنة). وهذا الأمر علامة واضحة على أن عبودية الشخص ليست لله ﷻ، وإنما للجماعة التي ينتمي إليها. إذا كانت قيادة الجماعة متبعة للأهواء والشهوات، ومخترقة لحدود الحلال والحرام، وغير مهتمة بالآخرة، ومتشبثة بالمصالح والمنافع الدنيوية، وبالحكم والسلطة فالنتيجة الطبيعية أن يُستعبد أعضاء هذه الجماعة، وتُسلب إرادتهم، ويتحولوا إلى مجرد دمى. وإن هذه النتيجة هي من أعظم أشكال الظلم والاعتداء التي يمكن أن تقع على شرف وكرامة الإنسان. فمحبتنا، وارتباطنا وطاعتنا محدودة بالحدود والمعايير الإلهية، فطاعة المخلوق غير واردة في مكان يُعصى فيه الحق ﷻ وتهدر الحقوق، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

٢. تربية التخلص من العجب

كما أن إعجاب المرء وزهوه بنفسه مرض معنوي، فكذلك إعجاب الجماعة المفرط بنفسها علامة على أن هناك مرض كبير وخطير يعتريها. إن أسباب هذا العجب متعددة، فأحياناً يكون مصدر العجب كثرة العدد، وأحياناً تكون الأعمال والإنجازات التي حققتها، وأحياناً يكون بسبب ما قدمته وتقدمه الجماعة من خدمات. وكذلك الانتصارات والنتائج الإيجابية قد تدفع الجماعة إلى الغرور والزهو أيضاً. ففي غزوة حنين أصاب المسلمين العجب والغرور نظراً لكثرة عدتهم وعددهم. وتسببت هذه الحالة بحدوث اضطراب في صفوفهم وهزيمتهم. وقد لفت ربنا ﷻ نظرهم إلى الخطأ الذي وقعوا فيه، وحذرهم من تكراره. وهذا الذي حدث للمسلمين هو نوع من عشق الجماعة لذاتها والذي يعميها عن عيوبها وأخطائها ومواطن ضعفها. فيضرب أمام الأحداث والتطورات سداً. فما ينبغي سلوك مثل هذا الطريق واتباع مثل هذا الأسلوب الذي من شأنه جلب الغضب الإلهي حتى وإن بدا في الظاهر دافعاً قوياً لزيادة ارتباط ومحبة أعضاء الجماعة. فقد اعتبر مولانا عز وجل أن دخول الجماعات وخاصة تلك المؤمنة في سباق المفاخرة والمباهاة فيما بينها، والسخرية والاستهزاء من بعضها مخالف لمبدأ الأخوة، وحذر من الانجرار إليه. إذ ليس من شأن العباد معرفة من هم الأفضل والأكرم عند الله تعالى، فلا يعلم ذلك إلا هو.

٣. تربية التخلص من الكبر

الكبر بذرة لتحول الشخص إلى فرعون، وقارون. فالكبر يضع الفرد أو الجماعة على طريق رحلة إلى جهنم والعياذ بالله. ويتولد الكبر في كثير من الأحيان عن الثقة المفرطة بالنفس. مع أن مصادر الغنى مثل العلم، والجاه، والسلطة، والمال تكسب الجماعة نوعاً من الثقة بالنفس، إلا أنها قد تحمله على الكبر أيضاً. وإن شعور الجماعة بعظمتها إشارة إلى إصابتها بمرض استحقار عباد الله الآخرين، والذي يُعد من أعظم الذنوب والمعاصي.

وهذا المرض شأنه كشأن مرض السرطان الذي يصيب جسد الإنسان، حيث ينبغي معالجته واستئصاله قبل أن يتوسع وينتشر ويفتك بالمُصاب. وإلا فإنه سوف يتسبب بهلاكه. إن الكبر يسحب الجماعة إلى نفق الأنانية ويثير لديها حس الاستغناء. وهذا سبب للطغيان. ومن سنن الله تعالى المتبعة بشأن الأقوام هي تدمير الجماعات المستكبرة الطاغية، وإزالة أثرها مع الزمن.

٤. تربية القوة

إن التحول للجماعة هو في الوقت نفسه استجماع للقوة. ولا يخفى على أحد أن القوة إذا لم يتم توجيهها التوجيه السليم فإنها سوف تتسبب بخطر عظيم. ومهما تعددت أشكال القوة مثل قوة المال، وقوة السلطة، وقوة العدة والعتاد، وقوة الجاه، وقوة الجماعة فإنها تشتمل في جوهرها على خطر. فكما أن تجمع قطرات المطر وتحولها إلى سيل جارف يمكن أن تحدث كوارثاً ودماراً هائلاً، فكذلك الأمر بالنسبة للمجتمعات الإنسانية التي تتحول إلى جماعات، فإنها إذا لم تخضع لتوجيه وإدارة سليمة سوف تتسبب بدمار وفساد الأفراد والمجتمعات على السواء. وبناء على ذلك يجب تعلم استعمال القوة في سبيل الله تعالى وضمن حدود ومعايير مشروعة ومقبولة.

٥. تربية مواجهة الباطل والوقوف بجانب الحق

إن نجاحات وانتصارات الجماعة قد تخلق لدى أعضاءها مع مرور الزمن اعتقاداً أن كل ما تفعله الجماعة أو القائد صواب وصحيح. والحال أنه ينبغي على المرء الوقوف دائماً بجانب الحق في مواجهة الباطل في سبيل المولى ﷻ. وإلا فإن الإنسان قد ينجرف إلى وضع يجعل فيه الجماعة أو القائد صنماً وإلهاً. فإن كانت سلامة ونجاح الجماعة تكمن في طاعة القائد وتسليم الأمور له، فيجب أن لا ننسى أن هذه الطاعة ينبغي أن تكون ضمن الحدود المشروعة. إن صفحات التاريخ مليئة بالجماعات والأقوام التي وقعت في فخ التأليه وتحويل القادة إلى أصنام وأوثان، ولكنها دمرت وأبيدت ولم يبق لها حتى أثر أو خبر.

وتُعد الحادثة التي جرت مع عدي بن حطيم خير بيان لكيفية اتخاذ القادة، والعلماء، والرهبان آلهة وأرباباً. حيث يقول عدي بن حاتم:

أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب. فقال: "يا عدي اطرح عنك هذا الوثن"، وسمعته يقرأ في سورة براءة:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ (التوبة: ٣١)

ثم قال: "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه" (الترمذي، التفسير، ٩/ ١٠)

٦. تربية التذكير الدائم بالهدف

إن الجماعات والجمعيات الخيرية والتربوية، وهيئات الإغاثة والمساعدات الإنسانية، وربما بعض الأحزاب تنطلق في البداية بأهداف سامية. إلا أن المصالح والمنافع الدنيوية التي تصادفها في طريقها، ومطامع السلطة والحكم قد تزيغ بأعينها وقلوبها، وتتسبب بزعزعة نواياها. فينبغي تذكير من هم في هذه الجهات، وخاصة في مواقع القيادة والحكم بالهدف الرئيسي على الدوام، ولفت انتباههم إلى أماكن الخلل والزلل. فإذا ظهر مثل هذا الانحراف الفكري والقلبي على مستوى القيادة فينبغي على أفراد الجماعة من أصحاب الحس العالي بالمسؤولية التذكير بالهدف الأساسي وبذل الجهد لتصحيح النوايا لوجه الله تعالى. وإلا فإن الضياع والخسران لن يقتصر على فرد أو أفراد محددين، وإنما سيشمل الجميع.

وفي النتيجة يمكننا القول: إن الانضمام إلى جماعة صادقة سليمة للوصول إلى مستوى أفضل في التقوى وعمل الخير أمر بغاية الأهمية لاستنزال الرحمة الإلهية في مختلف الأحوال. فالمهم هو التواجد في المكان الصحيح. فينبغي أن لا تقود انتماءاتنا الصغيرة والضيقة إلى تفريق وتمزيق وحدة الأمة أبداً، بل ينبغي تحويل هذه الانتماءات إلى عناصر مفيدة ومثبتة لوحدة الأمة هذه. وإن جعل انتماءاتنا التي ينبغي أن تكون وسيلة لتزكية أنفسنا، وتكامل قلوبنا، وكسب آخرتنا، جعلها أداة لغرور وعجب النفس خسران كبير في الدنيا والآخرة.

العدالة (٢)

الدكتور: مُراد كَيا

العدل أساس المُلك

إنَّ الله تعالى عادل لا يظلم أحداً ولو بمثقال ذرة فإحدى أسماءه الحسنى تعني أنه ذو عدالة مطلقة وهي الاسم الشريف **"العدل"** ولذا فإنه يطلب من عباده العدالة التامة، يقول الله تعالى:

﴿يا اَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوا كُوْنُوا قَوَّامِيْنَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلٰى اَنْفُسِكُم اَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْاَقْرَبِيْنَ﴾ (النساء، ١٣٥)

لقد أمرنا النبي ﷺ أنْ لا نتخلّى عن العدل في الغضب والحلم ووعد مَن قَدَرَ على ذلك بجزاءٍ وفير. ثمّ إنّ الإسلام يأمر المسلمين بالعدل حتى مع أعداءهم. يقول تعالى:

﴿يا اَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوا كُوْنُوا قَوَّامِيْنَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰى اَلَّا تَعْدِلُوا اِعْدِلُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى﴾ (المائدة، ٨)

كان سهيل بن عمرو خطيبَ قريش وكان يتكلم بالسوء في حق الإسلام على الدوام ويثير الناس على المسلمين فوقع أسيراً في يد المسلمين في غزوة بدر فقال سيدنا عمر ﷺ لِرَسُولِ الله ﷺ: «يا رسول الله، دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو، ويدلع (يخرج) لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً!». فَقال رسول الله ﷺ: "لَا أُمَثِّلُ بِهِ فَيُمَثِّلُ اللهُ بِي وَإِنْ كُنْتُ نَبِيًّا" (سيرة ابن هشام، ٢، ٢٩٣)

وعندما سمع النبي ﷺ أن المسلمين ألحقوا الضرر بحيوانات ونباتات الطرف المعادي في حصار خيبر غضب بشدّة ونهاهم عمّا فعلوه. (أنظر: أبو داود، الخراج، ٣١ - ٣٣ / ٣٠٥٠)

إنّ الديالكتيك أو المواجهة الوحيدة في الإسلام تكون بين الظالم والمُدافع عن المظلوم وذوو العدل والمدافعين عن العدالة وفي القرآن الكريم:

﴿...فَلَا عُدْوَانَ اِلَّا عَلَى الظَّالِمِيْنَ﴾ (البقرة، ١٩٣)

يمكن لإنسان يحترم حقوق الآخرين سواء كان مسلماً أو غير مسلم العيش في مجتمع مسلم. ولكن إنْ ظلم مسلماً ولم يحترم حقوق الآخرين فمن المسؤولية مواجهته مما يعني أن محور الفرق بيننا وبين الآخرين في المستوى الاجتماعي هو الظلم والعدالة.

وثمة مثال تاريخي يوضح المستوى الذي ارتقى إليه المسلمون في العدل:

وهو أن هرقل جمع الجمع للمسلمين، وحين بلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج. وقالوا: قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: لولايتكم أحب إلينا ما كنا فيه من الظلم والجَور ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم، ونهض اليهود. فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد وأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود. وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد، فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلّسين فلعبوا وأدوا الخراج.)البلاذري، فتوح البلدان، بيروت ١٩٨٨، ص، ١٣٩)

د. سليمان درن

التصوف والتحكم بالأنانية

إن أحد أهداف الطرق الأساسية هو ثني السالك ومنعه من الانجراف إلى مستنقع الأنانية سواء تجاه الحق سبحانه وتعالى أو تجاه الناس. إن ما يدفع الإنسان للنداء بالأنا، وادعاء الغنى بشكل عام هو المناصب والإمكانات الدنيوية.

وبناء على هذا السبب فقد أوصى الصوفيون أهل المعنويات والروحانيات بالزهد بالدنيا. إذ أن نار المتع والشهوات المادية التي تجلبها الوفرة والغنى والأموال تبث الحرارة في مشاعر الأنانية الغارقة في السبات الشتوي بسبب قلة الإمكانات لتدب فيها الحركة من جديد. يصف مولانا سمو وعلو شأن الإنسان المتحرر من أنانيته بالبيت الآتي:

من ماتت النفس الكافرة في بدنه...

دانت لأمره الشمس والغيوم. (المثنوي، ١، ٣٠٠٣- ٤)

إلا أن الشياطين تحارب أكثر ما تحارب السائرين على طريق المعنويات، فإنهم في هذه المرة يلتفون من طريق آخر ويطرقون أبواب الجماعات الصوفية أو غيرها من الجمعيات والمؤسسات. فتزين للجمعيات والمؤسسات التي تتولى بالأساس القيام بالخدمات والمساعدات الإنسانية، تزين لها أعمالاً أكثر مما هو مطلوب منها بشكل يخرجها ويبعدها عن أهدافها. وربما لا يباهي العاملون في هذه الجهات بأعمالهم ولا يمتدحون أنفسهم، إلا أنهم يبالغون في مدح المدرسة المعنوية التي ينتمون إليها بدرجة مفرطة. إنهم يعتقدون أن مرشديهم معصومون عن الخطأ، وينسبون إليهم قوى وطاقات خارقة تفوق قدرة البشر.

وبذلك فإن الأنا التي لا تظهر نفسها للناس بصورة مباشرة وجلية، تضع نفسها أمام الملأ بصورة أكثر خطورة وذلك على شكل الأنا الجماعية. وكأن كل واحد من هؤلاء الذين وقعوا في هذه المصيدة يريد القول بلسان حاله: إن الجماعة التي أنتسب إليها ذات مرتبة سامية وعالية لا تبلغها أي جماعة أخرى، وأنا باعتباري عضو في هذه الجماعة فإني تلقائياً صرت

أعلى مقاماً ودرجة من كل ما سواي من أعضاء الجماعات الأخرى.

وهكذا فإن النفس التي لم ترفع من شأن ذاتها بطريقة مباشرة قد فعلت ذلك بطريقة غير مباشرة ولكن بشكل أكثر خطورة، وجعلت ذاتها في مقام أعلى وأفضل من الآخرين.

وحسب الصوفية يُصبح هذا النوع من تكبر واستعلاء الأنا الذي يُعد من كبائر الذنوب وكأنه فضيلة في الظروف العادية. بينما تُعد هذه الرغبة وفق رأي الإمام الغزالي من أخطر الخصال السيئة لدى الإنسان وأكثرها تهلكة.

فيرى الإمام الغزالي أن أصل الخصال السيئة الكامنة في داخل كل الناس يعود إلى أربعة صفات خبيثة أساسية. وهي:

- الصفة البهيمية.
- الصفة السَّبُعية.
- الصفة الشيطانية.
- صفة الربوبية.

فأما الصفات الشيطانية فهي الذنوب والمعاصي التي ترتكب نتيجة للاستسلام لرغبات النفس وشهواتها، وهي متعلقة إما بالمعدة والبطن كالأكل والشرب من الحرام، أو متعلقة بالفرج من زنا ولواط وغير ذلك من المعاصي.

وأما الصفات السبعية وهي متعلقة بإشباع الغرائز العدوانية والتهجمية لدى الإنسان مثل الانتقام.

وأما الصفات الشيطانية فهي خداع الإنسان والمكر به.

وأما الصفات الربوبية فهي صفات الاستعلاء والتكبر على الناس، وتولي قيادتهم، والتحكم بحياتهم، والتسلط والاستيلاء عليهم. وإن المصابين بهذه الأمراض يرتكبون بسهولة المعاصي والذنوب السبعية والشيطانية التي مر ذكرها.

وحسب رأي هؤلاء فإن كل أسلوب وطريق مباح للإنسان من أجل الاستيلاء على الآخرين والهيمنة عليهم. وإن خدمة الدين بالنسبة لهؤلاء ليست هدفاً واجب التحقيق، وإنما العكس، فالدين أداة يجب استخدامها. وإن الذين يتبعونهم من أجل الدين يتحولون إلى أدوات بأيديهم لتحقيق مصالحهم السياسية والتجارية اليومية. وكل مسلم منصف يعرف تماماً مدى التخريب الذي أحدثه هذا الصنف الضال في الأوساط الدينية والصوفية.

وحسب رأي الصوفية فإن المرشد الذي وصل إلى مرتبة الفناء في الله سبحانه وتعالى، وأفنى ذاته في الرب يطلب من الناس تسليم أنفسهم له للذهاب بهم إلى الحق سبحانه وتعالى. فقد خرجت نفس المرشد من البين. إنه يدل الناس على طريق التسليم للنبي ولله. فالكسب والفوز الأساسي بالنسبة لهم هو دخول الناس إلى ظلال الإيمان والإسلام، والاهتمام بهم والالتفات إليهم يحوز على الأهمية لديهم فقط لكونه وسيلة لتحقيق ما سلف. إن مثل هذا الصنف من أولياء الله يقولون لغير المسلمين الذين يودون أن يصبحوا مريدين لديهم دون الدخول في الإسلام:

"أسلموا أولاً، ثم بعد ذلك لا ضير إن لم تصبحوا مريدين لدينا".

إلا أن من في ذواتهم بقية من النفس من الصنف الضال وغير الكامل فيرفعون من شأن أنفسهم وليس من شأن الحق سبحانه وتعالى من أجل القيادة والزعامة. وإن أسهل طريق بالنسبة لهم لتحقيق ذلك هو النفخ في "الأنا" لدى أتباعهم، وإعطائهم حصصاً كبيرة باسم الدين. فالمرشد الناقص يثني على أتباعه

بعبارات وكلمات فارغة، ويكيل لهم المديح في وجوههم مثل قوله لهم:

أنتم الصالحون، أنتم صحابة هذا الزمان، أنتم العباد الصادقون. مع أن المرشد الحقيقي لا يثني على مريديه أبداً، ولا يمدحهم في وجوههم، ولا يرميهم حطباً إلى نار الأنانية.

ولهذا ينبغي في كل الحركات والجماعات التي انطلقت بنية حسنة باسم الله تعالى إخضاع النوايا للمراجعة والمراقبة بصورة دائمة سواء من قبل القادة والمرشدين، أو من قبل الأتباع والمريدين. فكما قال الإمام الغزالي أحياناً تبدأ النية حسنة، ثم تسوء فيما بعد، وأحياناً تكون سيئة في البداية، ثم تتحسن فيما بعد. ولا ضمان للنية التي بدأت حسنة الحفاظ على صفائها حتى النهاية.

ولذلك يجب على الجماعات الدينية أن تحاكم نفسها، وتراجع أهدافها، وأعمالها في كل الظروف. إلا أن ما يجري اليوم هو العكس، حيث أن جماعات وجمعيات الخدمة تحاكم الآخرين بدلاً من أن تحاكم نفسها، وتتعقب عيوبهم، لا عيوبها هي.

لقد قال الله ﷻ لحبيبه محمد ﷺ الذي انتصر على أعدائه في معركة بدر برمي حفنة من التراب تجاه صفوفهم:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى...﴾ (الأنفال: ١٧)

كي لا تخطر له أفكار أو تثور لديه أحاسيس خاطئة، وبذلك ذكر المؤمنين جميعاً ونبههم لأن يدركوا أن كل نصر ونجاح إنما من الله تعالى وحده.

هناك حاجة ماسة في هذه الأوقات الصعبة التي نحتاج فيها إلى بعضنا من أي وقت مضى لأن نبذل قصارى جهودنا من أجل التغلب على التعصب الجماعي السائد بين مختلف الجماعات الدينية، والمساعدة على تشريع أبواب قلوبهم أمام إخوانهم الذين ينهضون بخدمات أخرى. وإلا فإن أمة الإسلام التي صارت ضعيفة لا حول لها ولا قوة، ولا مناصر سوف تتعرض لمصائب وأخطار أعظم مما تعاني منها الآن، وسوف تشهد الأمة كما أخبر البيان الإلهي مزيداً من التنازع، والفشل، وتذهب ريحها ومكانتها بين الأمم الأخرى. وشكراً من القلب.

النظر بعرفان إلى كتاب الكون

لا نجد عند أولياء الله تعالى الغفلةَ التي عند الناس في نظرهم إلى عجائب هذا الكون، لأنهم ينظرون إلى المخلوقات بعين الحكمة. ويتجه نظر هؤلاء الأولياء بإعجاب وحيرة إلى أمور كثيرة، منها: أوراق النباتات وأزهارها ذوات الألوان الكثيرة مع أن أصلها كلها تراب واحد، والأشجار ذوات الأفنان والثمار التي تختلف فيما بينها من حيث اللون والرائحة والطعم والشكل، ولا تكاد ترى تشابهًا بينها، وهذي الزخارف العجيبة المنقوشة على أجنحة الفراشات التي ما بلغ عمرها الأسبوع أو الأسبوعين، وتلك البلابل التي تصدح بالنغمات من قلبها الصغير فتأخذ الألباب، والدقائق الموجودة في خلق الإنسان، والعجائب الإلهية التي لا حد لها، مثل رؤية العين وإدراك الدماغ وما تعبِّر عنه هذه العجائب من أسرار بـ« لسان حالها». يتعمق أولياء الله في النظر والتفكر في آثار إبداع الله وكأنهم ينظرون إلى آفاق لا حد لها.

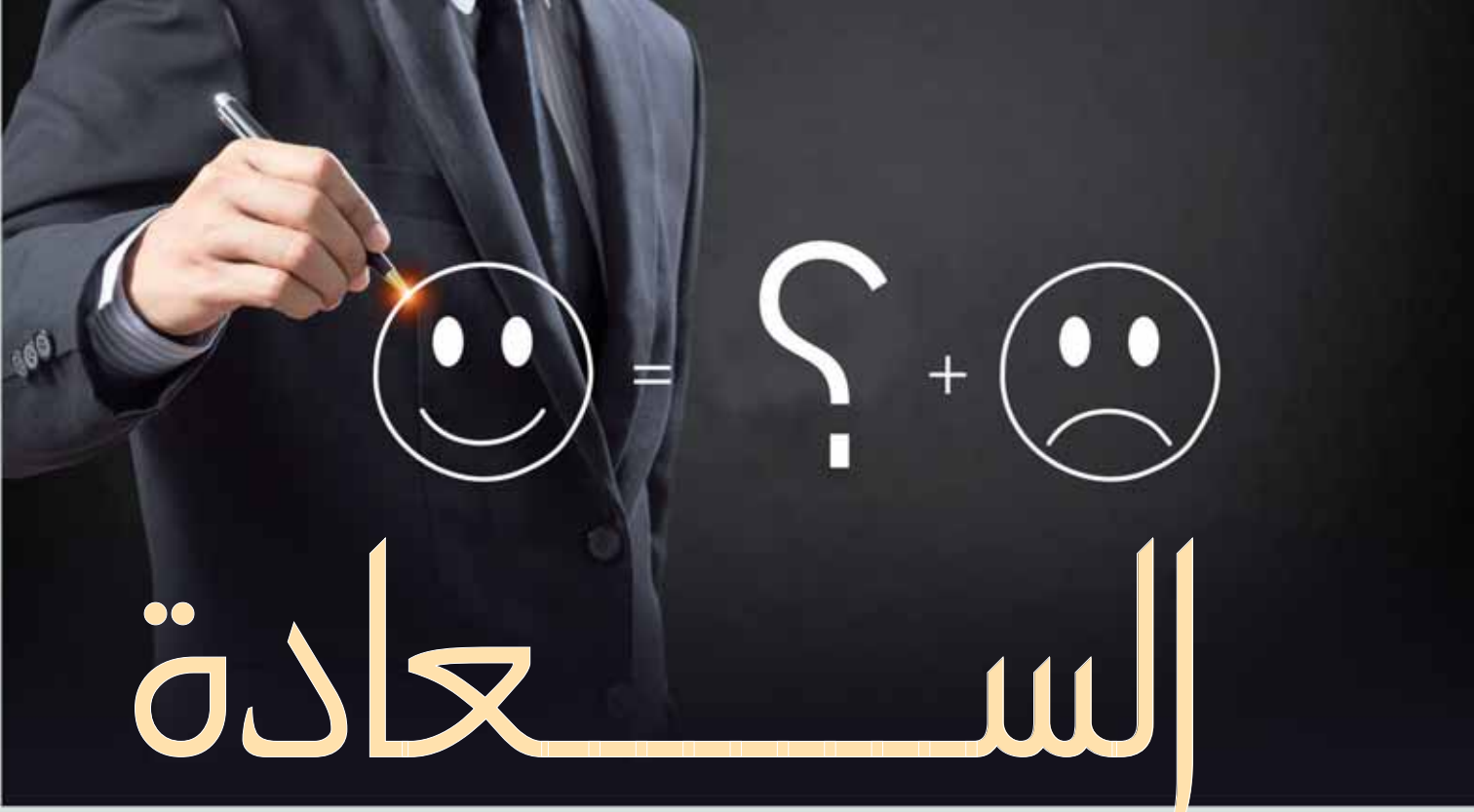

السعادة صعبة التحقيق

السعادة حالة الروح. ومنذ زمن يتم تداولها على أساس "الانشراح والبهجة في الحياة". ويُطلق على السعادة أيضاً "فرح ابتهاج القلب".

إدريس آربات

دعونا قبل الدخول إلى الموضوع نبين السعادة ببعض المقتطفات وبصورة مختصرة:

السعادة، حالة تعبر عن رضا الإنسان عن حياته.

وإذا تساءلنا: في أي الظروف أو متى يرضى الإنسان عن حياته ويسعد؟ فإننا نواجه بالإجابة الآتية:

"عندما يجد ما يبحث عنه".

حسناً؛ ولكن هل ما نبحث عنه جميعنا، أي تطلعاتنا وطموحاتنا في الحياة هي ذاتها؟ كلا، ليست ذاتها. لأن التطلعات والطموحات مرتبطة بنمط التربية والتنشئة من جهة، ومن جهة أخرى بالبنية الروحية. وكذلك هناك تأثير للحالة الصحية، والوضع الاقتصادي، ومستوى المجتمع الذي نعيش فيه على سعادتنا. ويلعب الإيمان أيضاً دوراً مهماً وأساسياً في هذه المسألة. إذ لا شك أن الإنسان الذي يعتقد أنه لا يعيش وفق ما تقتضيه المبادئ التي يؤمن بها سيكون مضطرباً وقلقاً حتماً. فالمعيشة غير المصطبغة بالصبغة الإسلامية لن تدع لدى الإنسان الطمأنينة والسكينة. لأن فطرتنا مبرمجة ومضبوطة على ديننا. "الله تعالى هو من يفتح صنبور السعادة، وهو من يغلقه".

" ليس بالإطراءات السخية يتم إسعاد الآخرين سعادة حقيقية، وإنما بالقيام بأشياء قيمة ومهمة".

يُفهم من مقولة: "تعرفت على دينك، فتصالحت مع نفسي" أن الحياة التي تطلبها فطرتنا هي الحياة التي عرضها علينا ديننا.

إن سورة الانشراح تلفت أنظارنا إلى ميادين، والآية: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨) تلفت إلى ميادين أخرى مختلفة.

وعبارة "الإنسان البسيط إنسان سعيد" تدل على حقيقة أخرى.

إن ما نسميه "الوجدان أو الفطرة" هي بعد آخر لمسألة الصوت الذي يعلو ويخرج من داخلنا.

وهناك أمر معروف وثابت أيضاً وهو "لا يمكن أن ينجو من يقصر في أداء واجباته من عذاب الضمير/ الوجدان".

وإن مقولات مثل: "وهل في هذه الدنيا عذاب جهنمي أكبر من عدم القيام بكل ما هو متاح".

و: "أليس الاضطرار لقول "ليت" دليل على اضطراب يعصف بأعماق الإنسان؟" مرتبط بالفطرة السليمة والوجدان.

والآن دعونا نحاول بعد هذه الخطوط العريضة الدخول قليلاً إلى التفاصيل: نحن نقول أن "الإنسان يسعد إذا وجد ما يبحث عنه". إلا أن القرآن الكريم يقول:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (المعارج: ١٩) . أي أن الإنسان يطلب المزيد دائماً، فكلما وجد شيئاً فإنه يبحث عن غيره ولا يكتفي به.

ولهذه الصفة جانب إيجابي، وآخر سلبي.

فأما الجانب الإيجابي فهو:

أن الإنسان مهما حقق من أمور جميلة وحسنة، ومهما كثرت الأشياء والمكتشفات التي توصل فإن عينيه ستكون متجهة للأعلى، وباحثة عن الأفضل والأحسن دائماً. وهذا يعني استدامة البحث والتفتيش وإنتاج المزيد من الحسن والجمال. وهذا الأمر ينطبق على الحسن المادي، والحسن المعنوي على حد سواء. فأجمل الشعر لم يُنظم بعد، وأجمل الأغاني لم تُلحن وتُغنى بعد، وأجمل المدن لم تُبنى بعد. ودائماً ليس هناك فضيلة إلا وفوقها فضيلة أخرى.

وأما الجانب السلبي فهو:

يُقال: "إن حاجات الإنسان لها حدود، وأما مطامعه فليس لها حدود". وهذا صحيح. "لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى الثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب". وإن إنسان الرأسمالية يحرك هذا الجانب باستمرار ويزيد إلى أمواله أضعافاً أخرى. وهو ما يقود إلى سلوك مسلك قارون.

إن مقولة: "عثور الإنسان على ما يبحث عنه سبب لسعادته" تكشف عن أمر آخر. فكما أن الناس مختلفون عن بعضهم من حيث البنية المادية الجسدية، فكذلك هناك اختلاف بينهم في البنية الروحية، وعوالم القلب أيضاً. إذ كما أن هناك أناس ذو ميزات خَلقية عالية ويتمتعون بقوة كبيرة في الجوانب والعقلية، والحسية، فإن هناك أناس أقل قوة وأدنى درجة في هذه الجوانب. أي أن الناس مختلفون من الناحية الخَلقية. وإن الاختلاف في التنشئة، والتربية والتعليم سوف يؤدي إلى مزيد من الاختلاف، واتساع الهوة بينهم بشكل أكبر. ومن ثم فإن جرعات سعادتنا أو تعاستنا وأحزاننا ستكون مختلفة أيضاً.

إن الدوافع والمحركات الكامنة في قلب الإنسان لا تهدأ ولا تكن حتى وإن وجد ما يبحث عنه. فإن توجهت دوافع القلب نحو الجانب الإيجابي فإنه يمتلأ بالأحزان الجديرة بالاحترام. وأما إن تحركت هذه الدوافع في الجانب السلبي فإن صاحب القلب يقبل على الخمور، والمخدرات، وربما يصل به الأمر إلى الانتحار.

إن مقولة "الإنسان البسيط، إنسان سعيد"، تشير إلى أن الإنسان الساذج الذي لم يتلقى تربية وتعليماً صحيحاً وسليماً سيكون سعيداً ومسروراً بإشباع الغرائز والشهوات. ولكن لا بد أن نبين أن هذا ليس

سعادة وإنما لهو. إنه مجرد تمضية للأيام المعدودة للعمر على خط سوي دون تغيير. وعدم اقتراب من حبل التسلق والصعود. فهذا الإنسان لن يقدم شيئاً للمجتمع، ولن يسهم في رفع مستوى الإنسانية. إنه سوف يمضي عمره كحمل على الأرض، وعائق أمام صعود المجتمع.

وأما الإنسان ذو المستوى الخلقي العالي، والذي تلقى تربية وتنشئة حسنة، فإنه مهما قدم من مكتسبات وإنجازات للبشرية سيبقى هناك صوت يناديه من داخله قائلاً: "ما زال هناك الأفضل، ما زال هناك المزيد". فهؤلاء هم مشاعل المجتمعات، والذين يوقفون حياتهم في سبيل خير البشرية. فالدنيا لا تتسع لهؤلاء ولا تكفيهم، وينابيع قلوبهم لا تنضب أبداً. ويمكن القول أن هؤلاء أناس اضطلعوا على مظاهر الانسجام والتناغم، والسمو، والجمال السائدة في الجنة. فمن هؤلاء يخرج كبار الفنانين والصناع، وأصحاب القلوب الرحبة والطيبة. وإن تحقق سعادة هؤلاء بالمعنى المعروف ليست بالأمر السهل. فداء هؤلاء صار دواء. وإنتاج الأشياء العلوية والسامية بالنسبة لهؤلاء بمثابة الطعام، والهواء، والشراب. ودون هذا الإنتاج يستحيل تحقق سعادتهم، وعيشهم. وإن سعادة هؤلاء سعادة ممزوجة بالحزن على الدوام.

إن الإيمان أو عدمه عامل شديد التأثير في مسألة سعادة الإنسان وشقائه. فالإنسان المؤمن يشعر بالسعادة بنسبة تطبيق إيمانه على أرض الواقع أو بنسبة جعله تطبيق إيمانه قناعة راسخة لديه. ومن جهة أخرى فإن وجود الله والآخرة يشكل للمؤمن متنفساً أمام شدائد ومصائب الحياة المريرة والمؤلمة. إذ من أين للإنسان أن يجد المواساة إن لم يكن هناك إيمان؟ فالذي يغرق في مستنقع الغرور والكبر خلال أيام الرخاء، سيقع بين براثن اليأس والقنوط في أيام الشدة.

وهنا دعونا نستذكر مقولة: "الله هو من يفتح صنبور السعادة وهو من يغلقه".

لا ريب أن الله تعالى بمقتضى اسمه الرحمن والرحيم، ومحبته الشديدة لعباده، وحثه على الخير سوف يكافئ عباده المؤمنين الذين لا ينقطعون عن الأعمال الصالحة في الدنيا قبل الآخرة، وهذه المكافأة الدنيوية أن يفتح لهم صنبور السعادة ليغترفوا منها حتى الارتواء. وفي الواقع وكما قالت لطيفة أرتكين ليس في باب المحبة- السعادة شيء يقدمه الإنسان للإنسان. فهذه لا تكون من الإنسان للإنسان، وإنما من الله تعالى للإنسان. ومن هنا يتولد الانجذاب والرغبة بالتوجه نحو المجاهيل. فعندما لا يجد الإنسان ما يبحث ويفتش عنه في عالم الإنسان فإنه إما سيتوجه إلى المجاهيل، وإما إلى الله عز وجل. وهنا تتجلى الحكمة القائلة: "إنه الإيمان ذاك الجوهر، فيا إلهي ما أعظمه".

ولا بد أن نذكر هنا مقولة: "تعرفت على دينك، فتصالحت مع نفسي". يُراد القول: "يا رب لقد هدأت آلام روحي وقلبي عندما بدأت بالالتزام بدينك".

ولا بد أن نعلم أن عالماً مثل ألكسيس كاريل والذي نال جائزة نوبل في الطب مرتين قد ألف كتاباً اسمه "الإنسان ذلك المجهول".

فهو يقول لا نعرف الإنسان. وجاء في القرآن الكريم:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ؟﴾ (الملك: ١٤)

وعلى ذلك فإن الظروف التي تُسعِد الإنسان، هي الظروف المتشكلة والمهيأة وفق القرآن الكريم. أي إذا لم تُنظم الدنيا وفق مبادئ القرآن العظيم من بابها إلى محرابها فلن يجد الإنسان السعادة بمعناها الكامل، وإنما سيضطر إلى الاكتفاء بها بشكل جزئي ونسبي. ومثل هذه الدنيا المتوافقة مع القرآن الكريم تبدو بعيدة المنال، وبعيدة جداً.

كلما أكثر الإنسان المؤمن من عمل الخير فإنه يتذوق طعم ولذة السعادة حتى وإن كان منكسراً. ويجد في الدنيا المحكومة بالموت مجالاً للتنفس إلى حد ما. ويقدر بجدارة على حل مشاكل الحياة قبل استفحالها. وأما إذا عمل من لا يضعون الإيمان في حسبانهم في هذه الدنيا خيراً فلا ريب أن الله تعالى بمقتضى عدالته المطلقة سوف يرسل إليهم رياح السعادة، ولكن لا أدري إن كانت جبال التشاؤم التي تحيط بهم من كل جانب سوف تسمح لهذه الرياح بالوصول إليهم، أم لا.

سئل تولستوي: ما سر سعادتك؟ فأجاب:

"أفرح بما عندي، ولا أشغل بالي بما ليس عندي".

فهذا ما يقال عنه الوصفة!

فمرحى لمن استطاع تطبيقها.

والآن أعتقد أنه قد اتضح الموضوع:

فحالة الروح التي يقال لها السعادة مراتب وصعبة التحقيق.

" إن لم تقف بين يديه لن تجد السعادة."

لقوم يتفكرون

يدأب الإنسان على آلية عمل النظام الكوني، لأنه يعيش منذ لحظة ولادته في هذا النظام الدقيق الذي لا يسري إليه أدنى خلل أو شذوذ.

عندما تقلع طائرة من المطار تُوجَّه إرشادات إلى الركاب من الطاقم المسؤول، فيُقَال لهم: "في حال تعرض الطائرة لنقص الأوكسجين سوف تنزل الكمامات من فوقكم، وتعمل أسطوانات الأوكسجين. وعليكم استخدامها بهذه الطريقة..."

ولكن لا أحد من الناس يتساءل قلِقاً فيقول مثلاً: يا تُرى هل سينخفض في الغد مستوى الأوكسجين. ولا نشعر بالخوف من عدم حلول الصباح، أو عدم شروق الشمس، أو عدم قدوم الربيع. إلا أن الذين يتفكرون يدركون النظام العظيم الذي يكمن في هذه الأمور، ولهذا فإن الحق سبحانه وتعالى يقول في كثير من الآيات القرآنية:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١؛ الجاثية: ١٣)

أي إن الحِكم تتجلى للذين يتفكرون ويتأملون بآلاء الله تعالى. ولا شك أن هذا الأمر يكون وفقاً لمستوى القلب، إذ إن القلوب التي تتبع خطوات الشيطان، أي الغارقة بالذنوب والمعاصي تكون عمياء وصماء أمام هذه التجليات الإلهية. وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (النمل: ٨٠)

وذلك لأن الكافرين ما هم إلا جثث حية.

نصرة المظلوم

علي رضا تمّل

يقول الله ﷻ:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ! إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾

(إبراهيم: ٤٢- ٤٣)

يُطلق على الذي يعتدي على العباد، ويغتصب الحقوق، ويرتكب المظالم اسم الظالم، ويُسمى الذي يُعتدى عليه وتُسلب حقوقه ب المظلوم. والأصل في الإنسان أن لا يكون ظالماً، ولا مظلوماً.

﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٩)

لقد حرم الله عز وجل الظلم على نفسه وعلى عباده.

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء: ٤٠)

ويتوعد الله الظالمين بعقاب شديد.

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧)

وقد جاهد الأنبياء وناضلوا لحماية المظلومين من بطش الظالمين. وتعرض جميعهم لمختلف أشكال الاعتداء والظلم، فمن من عُذب، ومنهم من قُتل، ومنهم من طرد وهُجر من وطنه.

إن نصرة المظلوم نصرة للحق وأهله. وأما نصرة الظالم والوقوف بجانبه فاشتراك بالظلم.

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (هود: ١١٣)

ويقول النبي ﷺ:

"من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام" (السيوطي، الجامع الصغير، ٢/ ١٥٥)

فنصرة المظلوم فضيلة.

ونصرة المظلوم شعار المسلمين.

وقد اشترك رسول الله ﷺ قبل البعثة والنبوة في حلف الفضول والذي عُقد لنصرة المظلومين والدفاع عنهم، وحفظ حقوقهم. وإن السبب الذي دفع إلى تشكيل هذا الحلف باختصار هو أنه: جاء رجل من زبيد ببضاعة له إلى مكة ليبيعها فيها. فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي وكان ذا قدر وشرف بمكة، وحبس عنه حقه فلم يؤده إليه. فاستدعى عليه الرجل الزبيدي الذي تعرض للظلم الأحلاف عبد الدار ومخزوماً وجمحاً وسهماً، فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل، بل وفوق ذلك زبروه ونهروه. فلما رأى الزبيدي الشر رقى إلى جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فقال بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ...

ببطن مكة نائي الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته ...

يا للرجال وبين الحجر والحجر

إن الحرام لمن تمت مكارمه ...

ولا حرام لثوب الفاجر الغدر.

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال: ألهذا مترك؟. فاجتمعت هاشم، وزهرة، وتيم في دار عبد الله بن جدعان. فصنع لهم طعاماً فحالفوا في القعدة في شهر حرام قياماً، فتعاقدوا وتعاهدوا: ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُؤدى إليه حقه ما بل بحر صوفة، وما رسا حراء وثبير مكانهما، وعلى التآسي في المعاش. ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه. فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول. وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام عن هذا الحلف:

"لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دُعي به في الإسلام لأجبت" (الصالحي، سبل الهدى، ٢/ ١٥٤)

لأنه كان حلفاً لاستعادة الأموال والحقوق المغتصبة ودفعها لصاحبها، وللأخذ على يد الظالم ومنعه من الظلم.

وقد وقف النبي ﷺ على مدى سنوات حياته إلى جانب المظلومين وناصرهم، وكذلك فعل الخلفاء الراشدون الذين ساروا من بعده على دربه ونهجه. حيث أشار أبو بكر الصديق ﷺ في أول خطبة ألقاها بعد اختياره خليفة إلى نصرة المظلوم، والوقوف في وجه الظالم، فقال: الضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أردّ عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.

وقف النبي ﷺ على مدى سنوات حياته إلى جانب المظلومين وناصرهم، وكذلك فعل الخلفاء الراشدون الذين ساروا من بعده على دربه ونهجه. حيث أشار أبو بكر ﷺ في أول خطبة ألقاها بعد اختياره خليفة إلى نصرة المظلوم، والوقوف في وجه الظالم، فقال: الضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أردّ عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.

فخلاصة المسألة هي: اعتبار القوة في الحق، وبعبارة أخرى اعتبار صاحب الحق قوياً، واعتبار المعتدي ضعيفاً. إلا أن الناس بصورة عامة يقفون في صف القوي دون النظر إلى ما إن كان هذا القوي محقاً أو معتدياً، حيث يقيمون القوة مقام الحق. والظلم يستمر ويدوم من خلال هذا الموقف وهذا المفهوم المنحرف. ومهما أراد الظالمون إدامة ملكهم وإعمار ممالكهم بالظلم فإن عاقبتهم الدمار والخسران.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام: ٢١)

ينبغي على الإنسان اتقاء دعوة المظلوم والحذر منها. فقد قال رسول الله ﷺ:

"اتقوا دعوة المظلوم وإن كانت من كافر، فإنه ليس بينها وبين الله تعالى حجاب" (العجلوني، كشف الخفاء، ٧٥)

إن الدعاء بالشر والسوء على أحد وإن لم يكن محبذاً بشكل عام، إلا أنه أُذن للمظلومين بذلك.

﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ (النساء: ١٤٨)

فبإمكان الذي تعرض للظلم، وسلب منه حقه الاستغاثة والصراخ، ورفع الصوت بالدعاء على من ظلمه، أو ذكر مساوئه وعيوبه لدى من يتظلم منه، وحتى من حقه الرد على إساءاته واعتداءاته بمثلها. فالله تعالى يسمع صرخة المظلومين، ويعلم بحالهم.

(حمدي يازر، الدين الحق، ٣/ ١١١)

إن شكوى المظلومين ترتفع إلى المولى عز وجل مباشرة دون واسطة أو حجاب. وتُعد الآية الأولى من سورة المجادلة دليلاً صريحاً على هذه الحقيقة، حيث يقول الله تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ﴾ (المجادلة: ١)

وسبب نزول الآية المذكورة هو أن خولة بنت ثعلبة بن مالك كانت امرأة أوس بن الصامت الأنصاري. وذات يوم طلبت من زوجها طلباً فغضب منها وظاهرها بقوله لها:

"أنت علي كظهر أمي".

وكان الظهار من طلاق الجاهلية، حيث يفرق بين المظاهر وامرأته، ويحرم عليه مراجعتها. ثم ندم أوس على فعلته، وأراد مراجعة امرأته. إلا أن خولة أبت عليه وذهبت إلى رسول الله ﷺ وعرضت عليه أمرها، وشكته زوجها، فقالت:

إن زوجي، يا رسول الله، تزوجني وأنا شابة، ذات مال، وأهل، وجمال حتى إذا أكل مالي، ونثرت له بطني، وأفنى شبابي، وكبرت سني، ووهن عظمي، جعلني عليه كظهر أمه. ثم ندم، فهل من شيء يجمعني وإياه؟.

فسكت النبي عليه الصلاة والسلام ولم يجبها.

فتوجهت إلى الله تعالى وأخذت تشكو إليه حالها قائلة:

اللهم إني أشكو إليك أشكو إليك حالي، وفاقتي، ووحدتي، وما يشق علي من فراقه، اللهم وإن لي صبية صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا.

وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتتضرع وتقول:

اللهم إني أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك. فنزلت هذه الآية. فبشرها النبي عليه الصلاة والسلام، وقرأ عليها قول الله تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ﴾ (البقرة: ٢٧٩)

كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا جاءته هذه المرأة يكرمها ويسمعها، يقضي لها حاجتها. فذات يوم خرج عمر ومعه الناس، فمرّ بهذه المرأة فاستوقفته فوقف لها، فجعل يحدثها وتحدثه، حتى طال وقوفهما، والناس معه. فقال له رجل: يا أمير المؤمنين! حبست الناس على هذه العجوز!.

فقال عمر: ويلك! أتدري من هي؟

فقال الرجل: لا. قال عمر: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة التي أنزل الله فيها:

﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ﴾ (المجادلة: ١)

والله لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقتها إلا للصلاة، ثم أرجع إليها حتى أقضي حاجتها.

لقد كان المظلومون مظهراً لحفظ الله تعالى ورعايته، ونصرته على الدوام سواء طال الزمن أو قصر. والمثال الحي على ذلك هم المسلمون الذين اضطروا إلى ترك بلادهم والهجرة إلى ديار بعيدة نتيجة لما تعرضوا له من ظلم واضطهاد شديد لا مثيل له على يد مشركي مكة. فقد صار هؤلاء النساء والرجال الذين أجبروا على الهجرة إلى بلاد الحبشة مظهراً لنيل الوعد الإلهي المتمثل بقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

(النحل: ٤١)

فاستقروا في النهاية في المدينة، وكثرت أموالهم، وقويت شوكتهم، وانتصروا على أعدائهم، وفتحوا مكة وغيرها من البلاد، وذكرهم الناس بالخير، ونالوا رضا مولاهم عز وجل.

لم تخل هذه الدنيا من مظاهر الظلم أبداً. وابتلي الناس فيها بابتلاءات كثيرة، فمنهم من ابتلي وامتحن بقوته وثروته، ومنهم من ابتلي بفقره وعجزه وضعفه.

ولا ريب أن لهذه الابتلاءات والامتحانات نتائج ستصدر يوماً ما، وكل إنسان سوف يحصل على النتيجة التي يستحقها إما في الدنيا، أو في الآخرة، أو في كليهما معاً.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ! إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾

(إبراهيم: ٤٢- ٤٣)

إن الظالم بظلمه المظلوم ظالم لنفسه. وإنه كلما زاد من ظلمه كلما زاد من عمق الحفرة التي سقط فيها، حتى يغدو عاجزاً عن الخروج منها.

وقد لُعن أمثال فرعون، ونمرود، ونيرون، وشداد، وأبو جهل، وأبو لهب بسبب ما ارتكبوه من مظالم. فالظلم جريمة عظيمة ومرعبة وبغاية البشاعة، حيث تعرض صاحبها للعن إلى يوم القيامة.

وبالمقابل فإن المظلومين من أمثال بلال، وعمار، وخباب بن الأرت يُذكرون بالرحمة إلى يوم القيامة. فليختر كل إنسان مع من سيكون، وبم سيُذكر كما شاء. وليقرر هل يريد أن يُذكر مع الظالمين باللعن، أم مع المظلومين بالرحمة!.

وأنهي سطوري هذه بأبيات لصوت المظلومين الشاعر عاكف:

لا أصفق للظلم، ولا أحب الظالم أبداً؛

ولا أشتم ولا ألعن الماضي لأجل متعة القادم

إذا رأيت جرحاً نازفاً يحترق قلبي

وأود لو أتلقى السياط على جسدي لأخفف ما به من ألم

لا أقول لا عليك ثم أمضي، وإنما أخفف عنه ما استطعت

سوف آخذ له حقه ولا أبالي إن آذيتُ أو أُوذيت

فأنا خصم الظالم، إلا أنني أهيم في حب المظلوم

فهل هذا رجاؤكم، وهذا معناه في لغتكم؟

الظالمون لأنفسهم

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (التوبة: ٢٣)

فملازمة الكافرين والإدانة لهم بالولاء والصحبة ظلم للنفس. لأن كفرهم وضلالهم يسري إلى المقربين منهم والملازمين لهم. وخاصة إذا كانوا من ذوي القربى، فتأثيره يزداد أضعاف كثيرة.

يذهب فخر الرازي والخازن إلى المقصود بهذه الكريمة: هو نهي المؤمنين من اتخاذ الكافرين والمنافقين بطانة وأصدقاء. أي لا يتخذ المؤمن الكافر صاحباً وصديقاً. ولو كان هذا الكافر من ذوي القربى مثل أبيه، أو أمه، أو إخوته".

وكذلك يقول الحق ﷻ:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ واللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤)

أي إذا كانت الأشياء المذكورة في الآية الجليلة أحب إليكم من الله تعالى ورسوله ﷺ ومن الجهاد في سبيل الله فانتظروا حتى يأتي أمر الله بنزول العذاب عليكم.

تدل هذه الآية القرآنية على ضرورة ووجوب تحمل كافة المضار والصعوبات والمشقات الدنيوية التي قد يتعرض لها المؤمن في سبيل الدين. وفيها إشارة إلى أن هناك عاقبة وخيمة تنتظر الإنسان إذا لم يكن مستعداً للتضحية بكل شيءٍ، أي بماله، ونفسه في سبيل دينه.

فالله ﷻ قال في هذه الآية: "إذا كانت هذه الأمور والأشياء الدنيوية أحب إليكم من الدين فانتظروا البلاء الذي سيحل بكم!". وهذا بيان أن عدم مراعاة الأمور الدينية تشتمل على مختلف أشكال البلايا والمصائب والمخاطر.

وجاء في تفسير الطبري:

أن هذه الآية نزلت في الذين رفضوا الهجرة إشفاقاً على آبائهم وإخوتهم. وبناء عليه؛ فإن الواجب الإسلامي يقتضي أن نقوم بإعانة ومساعدة إخواننا المؤمنين الذين هاجروا من بلاد أجنبية إلى بلادنا امتثالاً لهذه الآية الجليلة.

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ (هود: ١١٣)

جاء في تفسير فخر الرازي، والخازن:

أن معنى لا تركنوا: هو الميل والمحبة بالقلب للظلمة. أو الرضا بظلمهم. ومن ثم فإن معنى الآية:

إذا أحببتم الظالمين وسكنتم وملتم إليهم بقلوبكم، ورضيتم بظلمهم فسوف تصيبكم النار. فلا تميلوا إليهم بالمحبة كي لا تمسكم النار.

وإلا أصابتكم النار ثم لا تجدون لكم من ينصركم ويخلصكم من عقاب الله غداً في يوم القيامة".

أو تعني: "لا تداهنوا الظالمين، ولا تطيعوهم".

محمود سامي رمضان أوغلو، المصاحبة ١، ص، ١٤٩- ١٥٢.

من دروس
الشيخ موسى طوبّاش

معرفة الله عزّ وجلّ

إنإن معرفة الله علم الوجد.

معرفة الله علم الشوق.

معرفة الله علم العشق.

إن معرفة الله طاعة. إلا أن الخالق جل جلاله لا يذيق هذه النعمة العظيمة إلا لمن شاء، وأحب. وهذا التذوق يختلف حسب الشخص. فالبعض يتذوق القليل منها، والبعض حتى الشبع، والبعض يتذوقها حتى الاكتفاء. ويُعطى البعض الآخر بلا حساب، ولا يُبالي إن ذهب عقله، أو هام على وجهه في شعاب الجبال.

وقد جاء في حديث شريف: "في الدنيا جنة من وجدها لم يبال بالجنة، معرفة الله".

وورد عن أحد العارفين قوله:

مساكين أهل الدنيا خرجوا منها ورحلوا وما ذاقوا أطيب ما فيها. قيل له: وما أطيب ما فيها؟ قال: معرفة الله تعالى ومحبته، فهي ألذ وأطيب نعيم الدنيا.

وسأل جنيد البغدادي السري السقطي ـ رحمه الله ـ:

كيف أصبحت بالأمس؟. فقال سري السقطي:

ليس عند الله صباح ومساء. أي أن العارفين لا يبالون بالساعة والوقت. فهم مشغولون على الدوام وفي كل لحظة بمعرفة الله تعالى، وينسون أنفسهم في الحضرة الإلهية. وقال الرسول الأكرم ﷺ:

"لا موجود بحق الوجود الا الله ولا موجود بحق سواه"

ويقول داوود الكبير ـ رحمه الله ـ:

صاحب العرفان الحقيقي لا يكون ولا يبقى مع غير الذات الإلهية مهما كان الحال. فإن انشغل بنعمة أتت إليه من الحق سبحانه بطريق التجلي أسدلت الحجب بينه وبين ربه.

ويقول داوود الكبير ـ قدس سره ـ أيضاً:

إن ما قام به أهل العرفان من أعمال في دار الدنيا ليس لأجل حال، ولا مقام دنيوي... وإنما لتحصيل المكانة والمقام عند الذات الإلهية. وما الذي يريدونه بعد تحصيل هذا؟ فهناك تُختصر كل الأحوال والمقامات. فتحرى واشتر، وتخير والبس. هنيئاً لمن وجد.

مهما امتدح العارف وأثني عليه فلا يوفى حقه من الوصف والثناء. لأنه في كل أحواله مع ربه، ولا يجد السكينة والطمأنينة إلا بمعيته. ولا يبعده ولا يقطعه عن محبوبه نوم ولا يقظة. وليس في نظره موجود إلا الله تعالى. ولا يعرف إلا الله. فهو نسي حتى ذاته، من حالة الحيرة والإعجاب المستمرة. ولا يشغل تفكيره شيء سوى الحق سبحانه. فهو في الظاهر أصم، أبكم، فان. إنه وُجد بالفناء. هو أبكم ولكنه يقف على الحوادث المعنوية. وهو أصم، ولكنه مدرك لكافة الأحاسيس والمشاعر المعنوية.

إذ أن العارفين في مقام الرضا. فقلوبهم هادئة أمام كل الحوادث. فالرضا سرور القلب بكل الأقدار. والعارف يجعل من حب الله، والخضوع لقضائه وقدره لذة ومتعة. لأن أساس الرضا الوثوق بالله تعالى شأنه والتوكل عليه.

ورد في معرفة نامه: أربعة أمور تحقق السعادة في الدنيا والآخرة: التوكل، والتفويض، والصبر، والرضا.

صادق دانا، مصاحبات آلتن أولوك- ١، ص، ٥٢- ٥٥.

عثمان نوري طوباش

التصوف

وصولٌ إلى الكمال بالقرآن والسنة (٣)

عدم الغلو بالمحبة...

إن رأسمال الارتقاء المعنوي الأساسي في التصوف هو المحبة، وإن مظهر المحبة مراعاة الآداب. وإن رأسمال الارتباط القلبي بالمرشدين الكاملين، أي رأس المال الأصلي للرابطة هو المحبة أيضاً. بيد أن المبالغة في هذه المحبة، كما في كل أمر تقود الإنسان إلى طرق واتجاهات خاطئة. ولهذا فإن الأمر الخاطئ في الرابطة هو الغلو في محبة الإنسان، والوصول بها إلى مستوى المحبة الإلهية. فالمبالغة المفرطة في إجلال الإنسان الذي يُتخذ مرشداً معنوياً مع إضفاء طابع الألوهية عليه، وإظهار الاحترام له والارتباط به بشكل متجاوز للحدود الطبيعية لدرجة التعصب إشارةٌ إلى الانزلاق إلى أحوال وسلوكيات وتصرفات لم يقرها القرآن والسنة. وهذه الحالة نسأل الله حفظنا منها تضر بالإنسان ولا تعود عليه بالنفع، بل وتحيد به عن الطريق.

يجب أن لا يغيب عن بالنا أبداً أنّ المرشد بالنسبة للمريد بمثابة "واسطة" لا أكثر. وإن المبالغة والغلو بمحبة الواسطة، وجعلها "غاية" بذاتها، فتح لباب الشرك، ومن شأن الذين ينزلقون إلى هذا النوع من الغلو والمبالغة، تقوية موقف معارضي التصوف من جهة، والإضرار باستقامة الطريق الذي ينتسبون إليه من جهة أخرى، وهذه كارثة عظيمة.

لقد كان أبو بكر الصديق ﷺ من أكثر الصحابة محبة لرسول الله ﷺ، إلا أنه جعل هذه المحبة وسيلة للاعتدال، والتأني، والاستقامة، وينبغي أن تُتخذ حالته الآتية مثالاً نموذجياً في المجال الذي نتحدث عنه لجميع أهل التصوف:

كانت وفاة رسول الله ﷺ حدثاً أليماً وثقيلاً للغاية على الصحابة الكرام، فقد أصيب الجميع بحيرة شديدة، وحتى أنهم اهتاجوا واضطربوا، لأنهم فقدوا من أحبوه أكثر من أنفسهم، فقدوا رسول الله ﷺ، لأنهم لن يروا بعدها وجهه الشريف، الذي يشع نوراً، ولن يجدوا من يواسيهم. وكان من بين الصحابة من قال بعد وفاته عليه الصلاة والسلام: لا أريد عيناً لا تراه، وأذناً لا تسمع صوته، وحياة لا وجود له فيها.

وبدأ الصحابة الكرام بالبكاء في المسجد. وبينما كانت القلوب تئن من ألم وحزن تعجز الكلمات عن وصفه، قام عمر ﷺ صاحب الرأي السديد، وبدأ بالكلام وقد احتد وغضب غضباً شديداً فقال:

"لا أسمعن أحداً يقول: إن محمداً قد مات، من قال أن محمداً قد مات، ضربت بسيفي عنقه، إن رسول الله ﷺ لم يمت ولكن إنما عرج بروحه كما عرج بروح موسى!...". وما زال عمر يتكلم حتى أزبد شدقاه. ولما سمع أبو بكر الصديق ﷺ بهذا الخبر الأليم ركب حصانه وجاء إلى المدينة. فدخل عليه، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى، وقال:

مات والله رسول الله! ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦)، بأبي أنت وأمي! والله لا يجمع الله عليك الموتتين. لقد مت الموتة التي لا تموت بعدها!..

ثم أعاد الغطاء على وجهه الشريف وهو يقول:

"...طبت حياً وطبت ميتاً".

ثم خرج أبو بكر إلى الناس في المسجد وعمر ما يزال يتكلم أن رسول الله ﷺ لم يمت، فقال له:

اجلس يا عمر!

فأبى عمر أن يجلس. فكلمه أبو بكر مرتين أو ثلاثاً. فلما أبى عمر أن يجلس قام أبو بكر بكل ثبات فتشهد. فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال:

أما بعد! فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت!

قال تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: الآية، ١٤٤)

ولما سمع الناس كلام أبي بكر وهذه الآية، أيقنوا أن رسول الله ﷺ قد مات. لقد كانت الحيرة والدهشة والاضطراب قد بلغت بهم مبلغاً عظيماً، فكانوا بحالة وكأنهم لم يسمعوا بهذه الآية، ولم يعلموا بنزولها حتى تلاها أبو بكر!

فيقول عمر ﷺ:

إنها لفي كتاب الله! والله ما شعرت أنها في كتاب الله. والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى والله ما تقلني رجلاي وحتى هويت إلى الأرض، وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات".

(عبد الرزاق، ٥، ٤٣٦؛ ابن سعد، ٢، ٢٦٦- ٢٧٢؛ البخاري، المغازي، ٨٣؛ الهيثمي، ٩، ٣٢)

فكما تبين مما تقدم، رغم أن أبا بكر ﷺ كان أشد الناس حباً، وإجلالاً وتعظيماً واحتراماً للنبي ﷺ، إلا أن هذه المحبة الفريدة التي لا مثيل لها، لم تصبح يوماً ما سبباً لا ضطرابه وخروجه عن طوره، ولم تدفعه لأي سلوك أو عمل مخالف لحقائق الشرع، بل على العكس، فقد صارت معيار استقامة ترشد المضطربين والمنحرفين عن جادة الحق، وتهديهم إلى الصواب.

الإفراط والتعصب...

إن العبارات التي يتفوه بها بعض المريدين المجذوبين من شدة اهتياجهم، وفرط تحمسهم كقولهم: "أي شيء يتمناه شيخي فإن الله سوف يحققه له حتماً...". والتي يخرجون بها المحبة، والاحترام، والارتباط عن حدودها الطبيعية واللائقة، أبرز مثال على الإفراط والتعصب، إذ أن النبي عليه الصلاة والسلام ورغم أنه حبيب الله لم تُقبل كل أدعيته. حيث يقول عليه الصلاة والسلام:

"سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي: أن لا يُهلك أمتي بالسَّنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها" (مسلم، الفتن، ٢٠/ ٢٨٩٠)

إذاً، إن ربنا ﷻ إن شاء استجاب الدعاء، وإن شاء رده، حتى ولو كان دعاء الأنبياء. وبناء على ذلك، فإن العبد مهما كان مقامه ومرتبته المعنوية عالية، فإن أعماله وأدعيته بحاجة إلى قبول الله تعالى لها.

فيجب أن نعلم جيداً أن هذا المعيار طالما كان يسري بحق الأنبياء، فإنه يشمل الناس جميعاً من بعدهم مهما كانت مرتبتهم حتى لو كانوا من كبار الأولياء. وعلى ذلك، فلا يمكن القول أن العبد الصالح والولي، إذا دعا فإنه دعاءه مقبول حتماً، أو رقى مريضاً فإنه سيشفى قطعاً. وذلك لأن مثل هذه الأمور تتطلب لكي تتحقق النتيجة المرجوة منها: إخلاص الطرفين من جانب، ومن جانب آخر يجب أن تتوافق مع التقدير والمراد الإلهي. وهناك أمر آخر، وهو أن الأنبياء وكذلك الأولياء مكرمون بمشارب وتصرفات ومعجزات وكرامات مختلفة عن بعضها. ومن ثم فإن الصفة أو الخاصية المتميزة والبارزة لدى أحدهم، لا يمكن أن تظهر بالمستوى ذاته لدى الآخرين. ولذلك فإنه ليس من الصواب توقع ذات التصرفات من الجميع. وبكل الأحوال فإن وظيفتهم الأصلية، ليست القيام بمثل هذه التصرفات والخوارق، وإنما وظيفتهم إرشاد القلوب ووعظها.

إن النبي عليه الصلاة والسلام ورغم أنه حبيب الله ﷻ لم تُقبل كل أدعيته.
حيث يقول عليه الصلاة والسلام في حديث شريف:
"سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي: أن لا يُهلك أمتي بالسَّنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها".(مسلم، الفتن، ٢٠/ ٢٨٩٠)
فربنا سبحانه وتعالى إن شاء استجاب الدعاء، وإن شاء رده، حتى ولو كان دعاء الأنبياء

وقد يكون توسل العبد خلال الدعاء بالأنبياء والعباد الصالحين الذين يحبهم الله ﷻ، أكثر جلباً للرحمة الإلهية، ولكن يجب عند التوسل بأحباء الله في الدعاء الطلب من الله وحده، وليس من هؤلاء، لأن الفاعل المطلق هو الله تعالى وحده.

حيث يقول الحق ﷻ:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٤)

وكذلك تُعد العبارات التي يقولها البعض في غيبة الصالحين أو عند زيارة قبورهم مثل "يا فلان! اشفني! حقق لي حاجتي في كذا!". والتي تتضمن طلباً مباشراً منهم، تُعد خطأً كبيراً لدرجة يمكن أن تقود صاحبها إلى أبواب الشرك. فيجب الحذر كل

الحذر، من هذه العبارات وأمثالها، والتي من شأنها الإخلال بعقيدة التوحيد البالغة الحساسية والدقة. يجب وبكل حزم، اجتناب كل عبارة من شأنها أن تعطي انطباعاً بأن هناك من يمتلك التصرف المطلق سواء في حل المشكلات المادية أوالمعنوية، أو في إدارة وتدبير شؤون الكون غير الله تعالى. وتوضح الحادثة الآتية وبكل جلاء حقيقة ارتباط كل التصرفات بمشيئة الله تعالى:

ظل أبو طالب، سنوات طويلة يتولى حماية النبي ﷺ والمسلمين، ويدافع عنهم بشدة ويقدم التضحيات في سبيل ذلك. وكان النبي ﷺ شديد الرغبة بإيمان عمه ويدعوه بإصرار، وكان أبو طالب يقول أمام هذا الإصرار:

– (أعلم أنك على حق. ولكن إن آمنت تعيرني نساء قريش!). فهو لم يقر بالحقيقة التي استقرت في وجدانه واستيقنها قلبه؛ لتغلب العصبية القبلية عليه، وكان آخر ما قاله أبو طالب لرسول الله عندما حضرته الوفاة:

– أموت على دين عبد المطلب، والله يا ابن أخي لولا أن تكون سبة عليك وعلى أهل بيتك من بعدي، يرون أني قلتها جزعاً حين نزل بي الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها!..". (البخاري، الجنائز، ٨١، مناقب الأنصار، ٤٠؛ ابن سعد، ١، ١٢٢– ١٢٣)

فقال رسول الله ﷺ: **"أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك!"**.[1] وغادر دار عمه حزيناً.

وبسبب قول النبي ﷺ لعمه: "لأستغفرن لك!" وحزنه وكدره الشديد على عمه، نزلت الآية القرآنية:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2]

إذاً حتى جهود الأنبياء، ليست كافية لوحدها من أجل هداية إنسان ما إلى الطريق القويم، حيث أن الله تعالى إن شاء طرح بركة التأثير في هذه الجهود، وأوصلها إلى النتيجة المبتغاة، وإن شاء تركها دون تأثير ونتيجة.

۞ يُطلع الله أحداً على كل الأمور...

يمكن لبعض المريدين أن يجنحوا نتيجة إفراطهم في حبهم لمرشديهم ومشايخهم واهتياج مشاعرهم إلى تصورات وأفكار منحرفة، مثل قول أحدهم: "إن مرشدي يعلم كل شيءٍ!". لا شك أن هذا الأمر تربية ناقصة، إذ أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يجيب أحياناً على مسائل يُسأل عنها بقوله:

"ما المسؤول عنها بأعلم من السائل" (انظر: مسلم، الإيمان، ١)

ويقول الشيخ سعدي في كتابه "كلستان":

سأل رجل النبي يعقوب عليه السلام فقال:

يا من قلبه منير ، أيها النبي العاقل! لقد شممت رائحة قميص يوسف عندما كا ن قادماً من مصر، فلم لم تره عندما ألقي في الجبّ وهو قريب منك؟

فأجاب يعقوب عليه السلام:

---

١. وبناء على استغفار الرسول صار المسلمون أيضاً يستغفرون لموتاهم من المشركين. فأنزل الله تعالى الآية ١١٣– ١١٤ من سورة التوبة وحرم الاستغفار للمشركين. (راجع: الطبري، التفسير، ١١، ٣١).

٢. سورة القصص: الآية، ٥٦. البخاري، تفسير القرآن، ٢٨/ ١؛ مسلم، الإيمان، ٣٩، ٤١– ٤٢؛ أحمد بن حنبل، المسند، ٥، ٤٣٣.

"إن ما نناله من كشوفات إلهية مثل لمعات البرق. لهذا فإن الحقائق تصبح أحياناً عياناً أمامنا، وأحياناً تُحجب". أي إذا رفع الله الحجاب فإن العبد يشاهد ما وراءه، ولكن إن أسدل الحجاب فإن الإنسان لا يرى حتى الحفرة التي أمامه. بمعنى أن العبد عاجر مهما كان مقامه المعنوي، وبحاجة دائمة إلى لطف الله ﷻ.

كل عبد خطّاء

كذلك، يمكن أن يجنح بعض المريدين نتيجة الإفراط في محبة مرشديهم إلى أفكار منحرفة أخرى، مثل قولهم "إن مرشدي لا يخطئ أبداً!". ولا شك أن هذا الأمر أيضاً تلقٍ خاطئ.

إذ أنه حتى أبو بكر ﷺ الذي يُعد خير البشر بعد الرسل، كما جاء في الكثير من الروايات، قد قدم في هذا الشأن معياراً بغاية الروعة، وذلك في خطبته التي ألقاها بعد اختياره خليفة على المسلمين، حيث قال:

"أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم وليست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني...أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم!.." (ابن سعد، ٣، ١٨٢- ١٨٣؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص، ٦٩، ٧١- ٧٢؛ حميد الله، نبي الإسلام، ٢، ١١٨١)

فإن كان أفضل وخير رجل في الأمة يقول مثل هذا الكلام، فيجب إذاً أن نفكر بما ينبغي أن يقوله من يجب عليهم الاقتداء به. وكذلك كان مظهر جان جانان الذي يُعد من كبار المرشدين الكاملين، حيث كان شديد الحرص على أن تكون كل أموره وأعماله مطابقة للسنة النبوية. ومع ذلك كان يبدي تواضعاً شديداً بقوله:

"من رأى منا أمراً يخالف أحكام الإسلام فليسرع إلى تنبيهنا!" (عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص، ٤٣)

لا تغترن يا ابن آدم!

كذلك يمكن أن نصادف لدى بعض الناس بسبب إفراطهم في محبة الطريقة التي ينتسبون إليها انحرافات واهتياجات، قد تحولت إلى هذيان لا أصل له، ولا سند، وبشكل لا يتوافق مع أسس وأصول الشريعة أبداً، وذلك من قبيل ادعائهم: "أنه حتى أكثر عاصٍ من طريقتهم سوف يشفع لأربعين إنساناً، وأن الذين يتمسكون بثوب مرشدهم في الآخرة سوف يدخلون الجنة مباشرة".

لنبين أولاً الأمر الآتي: إن الشفاعة حق، فإن شاء ربنا تعالى أكرم من يشاء من عباده بها. إلا أن شفاعة الناس لبعضهم، ومسألة من سوف يشفع لمن في الآخرة فإنها أمر لا يعلم به إلا ربنا ﷻ. فقد جاء في القرآن الكريم:

﴿... مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...﴾ (البقرة: ٢٥٥)

وبالتالي فإن النظر بشأن الخلاص الأبدي إلى مشاعر المحبة، والاحترام، والانتساب تجاه العباد الصالحين وإلى الشعور بحسن الظن بهم وكأنها مرتبةٌ قطعيةٌ النص الشرعي، يُلحق الضررَ بالشخص معنوياً.

ومن أهم الأمور التي تخفق وترتجف لها قلوب أولياء الله الرقيقة والحساسة أيضاً، هو خوفهم من أن يحاسبوا أمام الله تعالى بسبب ما يدور على لسان

إن التحذير الذي وجهه النبي ﷺ لابنته فاطمة وعمته صفية ﷺ يتضمن الكثير من العبر في هذا الخصوص، حيث قال لها: **"يا فاطمة بنت محمد ويا صفية عمة رسول الله! اعملا لما عند الله (وإلا لا تأمنا أن أباك وابن أخيك نبي) فإني (إن لم تقوما بواجب العبودية) لا أغني عنكما من الله شيئاً!"**

(انظر: ابن سعد، ٢، ٢٥٦؛ البخاري، المناقب، ١٣٣- ١٤؛ مسلم، الإيمان، ٣٤٨- ٣٥٣)

الناس من إطراءات ومدائح مفرطة بحقهم. ولهذا فإن أبا بكر ﷺ كان إذا مدحه أحدٌ توجه في الحال إلى الله وقال:

"اللهم أنت أعلم مني بنفسي، وأعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون" (السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص، ١٠٤)

وبسبب الخوف والهاجس ذاته أوصى الشيخ خالد البغدادي بعدم كتابة أي عبارات تتضمن مدحاً وثناء وإطراء عليه على شاهد قبره.

إذاً؛ فأهل التصوف الحقيقيين هم هؤلاء المؤمنون الذين ترتجف قلوبهم لشدة حساسيتهم تجاه مثل هذه الأمور وخوفهم منها.

وينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا أبداً أن النصارى قد أفسدوا عقيدة التوحيد بسبب إفراطهم في تقديس نبيهم، فجعلوه شريكاً لله تعالى. وبناء على ذلك فقد حذر رسول الله ﷺ أمته من الوقوع في مثل هذا الإفراط، فقال:

"لا تطروني، كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله، ورسوله" (البخاري، الأنبياء، ٤٨)

"يا أيها الناس، لا ترفعوني فوق قدري، فإن الله اتخذني عبداً قبل أن يتخذني نبياً" (الحاكم، ٣، ١٩٧/ ٤٨٢٥، الهيثمي، ٩، ٢١)

وينبغي أن لا ننسى أن كل عبد ما عدا الأنبياء والرسل عاجز وخطاء. وحتى الأنبياء يتعرضون للزلات بحسب طبيعتهم البشرية. ولكن تُصحح زلاتهم باعتبارهم محاطون بالعناية والتأييد الإلهي.

وإحدى حكم هذا الأمر هي تذكير الأنبياء بأنهم هم أيضاً عاجزون، ومن جهة أخرى تحذير أممهم وأتباعهم من الإفراط في تقديسهم ورفع قدرهم لدرجة إضفاء الألوهية عليهم.

ومحبة الأولياء والصالحين واحترامهم وإجلالهم مطلوبةً، إلا أنه من الضرورة بمكان مراعاة الحدود الشرعية في احترامهم وتقديرهم. وإلا فإن المتجاوزين لهذه الحدود يلحقون الضرر باستقامتهم من جهة، ومن جهة أخرى يلطخون صفاء الطريق المعنوي الذي ينتسبون إليه ويسيئون إليه.

لقد ظهر ويظهر بين الحين والآخر استغلاليون وانتهازيون في ميدان التصوف كما هو الحال في كل ميدان. وقد نجد اليوم أيضاً من يخرج علينا سواء بسبب الأنانية أو بمرض نفسي فيطرح بحثاً عن الشهرة والمكانة ادعاءاتٍ كبيرة بعيدة تماماً عن روح التصوف الحقيقي، مثل قول أحدهم: "أنا قطب الزمان، أنا الغوث".

إن أول من انتقد وعلى مر التاريخ مثل هذا الصنف من الانتهازيين والمستغلين هم أهل التصوف الحقيقيون. وعلينا أن نعلم أننا لم نأت إلى عالم الامتحان لنُطري ونمتدح بعضنا البعض. وإنما أُرسلنا إلى هذه الدنيا لندين جميعنا بالعبودية التامة لربنا سبحانه وتعالى مدركين افتقارنا، وفناءنا وعجزنا. فأعلى وأجل مرتبة في هذا العالم الفاني هي العبودية للحق سبحانه وتعالى. فجميعنا بأخطائنا وصوابنا عبيد عاجزون. وليس لنا بشأن عاقبتنا ونجاتنا إلا الالتجاء إلى رحمة ربنا ومغفرته، وعنايته بعد بذل كل ما نقدر عليه من جهود وطاقات.

التصوف؛ هو جعل القلب في توازنٍ بين الخوف والرجاء...

ينبغي أن نتخذ جميعنا الدرس والعبرة المستنبطة من الحادثة الآتية التي جرت في عصر السعادة دستوراً مهماً لحياتنا:

كان عثمان بن مظعون ﷺ صحابياً جليلاً مشهوراً بالزهد والتعبد. وقد توفي ﷺ بالمدينة في دار امرأة تدعى أم العلاء. فقالت المرأة: "رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله".

فقال النبي ﷺ: **"وما يدريك أن الله قد أكرمه؟"**

فقالت المرأة: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟

فقال النبي ﷺ:

"أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري، وأنا رسول الله، ما يفعل بي"

فقالت أم العلاء:

"فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً" (البخاري، التعبير، ٢٧)

فما لأحد ضمان عدا الأنبياء والرسل والمبشرين أن يموت على الإيمان. فقد تحدث القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، عن أناس تعرضوا للعذاب الإلهي، ولم يبق بينهم وبين الجنة إلا شبر، وبالمقابل نال أناس الرحمة الإلهية وقد فصل بينهم وبين النار شبر. ومن جملة هؤلاء بلعام بن باعوراء الذي بعد أن بلغ مقاماً عالياً صار فيه يطلع على اللوح المحفوظ ويقرأه، تعرض للخسران الأبدي لغلبة النفس عليه.

وكذلك قارون. فقد كان قارون صاحب زهد وتقوى، ونال الكثير من كرم الله تعالى وإحسانه. وكان فوق ذلك أفضل من يقرأ التوراة ويفسرها، ولكن وعوضاً عن أن تقربه الخزائنُ المليئة ذهباً وفضة إلى الله تعالى، وقد كان امتحن بها، صارت سبباً في ابتعاده عنه. وفي النهاية خُسفت الأرض به وبداره وبالخزائن التي كان يستقوي ويستعلي بها، وكان من المهلكين.

وقال خالد البغدادي:

النزع الأخير مجهول (من سينجو فيه). إذ كم من الفساق والفجار صاروا أولياء، وكم من الصالحين وأصحاب الورى صاروا في أسفل سافلين..." (أسعد صاحب، بغية الواجد، ص، ١٢٠- ١٢١، رقم: ١٦) وكان يتضرع في الكثير من مكتوباته أن يرزقه الله تعالى خاتمة على الإيمان. أي أنه ليس في الطريق المعنوي مكان للغرور والتراخي والتهاون بدعوى "بلوغ الكمال"، أو التوهم بعلو المرتبة ورفعة القدر. بل على العكس، إذ أن الأساس في هذا الطريق هو الشعور الدائم بالتقصير والنقص، وبذل أقصى الجهود لتدارك هذا التقصير. فقد قال العارفون:

"لا عرفان مثل معرفة المرء نقصه".

قال خالد البغدادي:
النزع الأخير مجهول (من سينجو فيه). إذ كم من الفساق والفجار صاروا أولياء، وكم من الصالحين وأصحاب الورى صاروا في أسفل سافلين...". (أسعد صاحب، بغية الواجد، ص، ١٢٠- ١٢١، رقم: ١٦)
وكان يتضرع في الكثير من مكتوباته أن يرزقه الله تعالى خاتمة على الإيمان.

وكان الأنبياء والرسل الذين نالوا الضمان الإلهي بشأن الآخرة دائمي الالتجاء إلى الله تعالى، والتضرع إليه وهم يتقلبون بين مشاعر "الخوف والرجاء"، وكان خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي ابتلي في ماله، ونفسه، وأولاده، يتضرع قائلاً:

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (الشعراء: ٨٧)

وكان حبيب الله نبينا عليه الصلاة والسلام يقوم الليل حتى تتورم قدماه، ويستغفر ويتضرع إلى الله

والدموع تنهمر من عينيه حتى تبتل لحيته، ومكان سجوده رغم أنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وكذلك الصحابة "العشرة المبشرون بالجنة"، فلم يتكل أحدهم إلى هذه البشارة ويُشعر نفسه بالأمان، وإنما كانوا يقومون بواجب عبوديتهم على أكمل وجه دون أدنى تهاون، ولم يصبهم أدنى غرور أو تراخي في العبادة. لقد عاشوا حياة عبودية نموذجية، فكان الواحد منهم مثالاً لعلو الهمة، وشدة العزيمة ورقة القلب وكثرة التعبد.

تُعد الحادثة الآتية أجمل مثال على الحساسية القلبية لدى الصحابة الكرام:

كان سلمان ﷺ شخصية فريدة ومثالية في سائر أحواله وتقلباته، وخاصة في تضحياته وجهوده العظيمة التي كان يبذلها في سبيل الله تعالى، حتى أن الأنصار والمهاجرين اختلفوا عليه، حيث أن كل فريق كان ينسبه إليه بقوله: سلمان منا.

فقال رسول الله ﷺ حلاً للخلاف بين الطرفين من جهة، ومن جهة أخرى تكريماً لسلمان ﷺ: **"سلمان منا آل البيت"** (ابن هشام، ٣، ٢٤١؛ ابن سعد، ٤، ٨٣؛ الحاكم، ٣، ٦٩١/ ٦٥٤١؛ الهيثمي، ٦، ١٣٠)

وعلى الرغم من هذا التكريم واللفتة النبوية، فقد عاش ذاك الصحابي المبارك، حياة بمنتهى التواضع، فكان قلبه يخفق ويرتجف دائماً خشية من الآخرة.

فقد جاءه رجلان فسلما عليه وحييا، ثم قالا: أنت سلمان الفارسي؟

قال: نعم. فقالا: أنت صاحب رسول الله ﷺ؟

فقال سلمان: لا أدري. فارتابا وقالا: لعله ليس الذي نريده!

قال لهما سلمان ﷺ:

أنا صاحبكما الذي تريدان، إني قد رأيت رسول الله ﷺ وجالسته، فإنما صاحبه من دخل معه الجنة.

فهؤلاء هم الصحابة، حيث لم يكونوا صحابة بالاسم والقول فحسب، وإنما كانوا صحابة فعلاً وقولاً وعملاً، صحابة قلباً وقالباً. فقد كانوا طائعين لرسول الله ومقتدين به في كل أحوالهم.

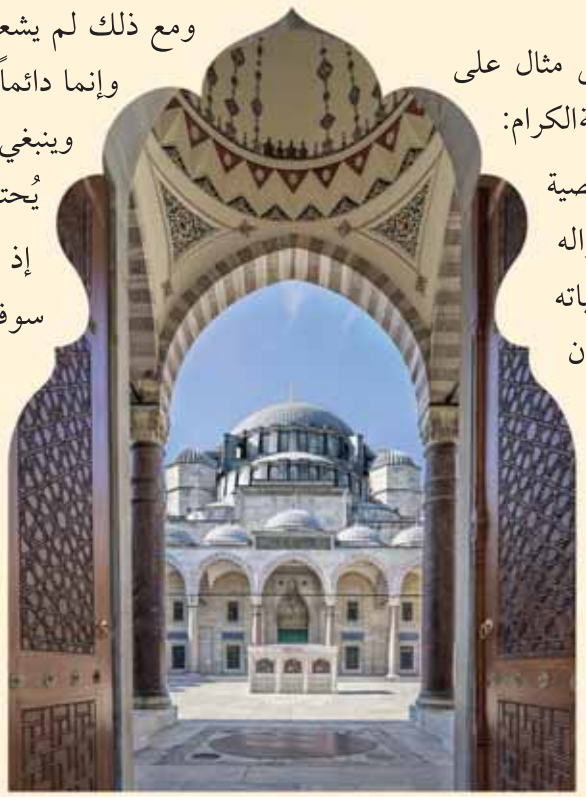

ومع ذلك لم يشعروا أنهم ناجون يوم القيامة، وإنما دائماً كانوا في حالة سعي وتعبد. وينبغي أن يكون حالهم هذا نموذجاً يُحتذى به لجميع المؤمنين.

إذ إن القيمة المعنوية للشخص سوف تتحدد بالمعنى الحقيقي في الآخرة. ولهذا فإن واجب العبد هو الاستمرار بالعبودية بحالة من الفناء والافتقار والعجز.

وعلينا أيضاً أن نضع نصب أعيننا النفس الأخير ونجهد لعيش حياة متوافقة بكل لحظاتها مع الكتاب والسنة، وأن لا يفارق تضرع يوسف عليه السلام ألسنتنا والمتمثل بقوله:

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١)

وعلينا أن نتذكر دائماً أنه مهما كانت مراتبنا ومقاماتنا فإننا عاجزون عن تحديد مصير وعاقبة أحد، سواء في ذلك نحن أو من سوانا. فنحن في هذا الأمر بحاجة دائمة إلى رحمة ربنا، ومغفرته، وعنايته.

نسأل الله تعالى أن يكرمنا جميعنا بعاقبة حسنة... آمين...

حق الأمل

نور الدين يلدز

إن حق النظر بأمل وتفاؤل إلى الحاضر والمستقبل هو حق كل إنسان، وطأ هذه الأرض وهو مؤمن. فالأمل الحقيقي هو أمل هؤلاء.

إن إيمان الإنسان، وعيشه في الحياة، وهو من أهل الإيمان، هو ارتباط وتعلق بالله تعالى الخالق، والمانح للحياة، ومهما حاول الشيطان وأعوانه ومن وضعوا أنفسهم في خدمته، إظهار الإيمان والانتماء إلى أهله وكأنه سبب للعجز وانعدام الحيلة، وعملوا على إقناع عقول الناس بهذا الأمر فإن الحقيقة الكبرى تظل هي حقيقة أن الله تعالى مالك كل شيءٍ، وصاحب القول الفصل، والإنسان المؤمن الذي يعيش في ظل هذه الحقيقة الكبرى، هو إنسان الأمل، فهو مفعم بالأمل، ومحط ووجهة للعيون التي تنظر بأمل على السواء.

إن الانتماء لأهل الإيمان معناه تجاوز التطلعات والطموحات المحدودة بعالم الدنيا، معناه العيش لأجل الآخرة، والاستثمار لأجل الآخرة، والنظر إلى الدنيا على أنها محطة يتوقف فيها لفترة على طريق رحلة طويلة، ثم يغادرها. فالمؤمن هو الإنسان الذي يعرف الدنيا وحقيقتها. يعرف ماض الدنيا ومستقبلها بشكل قطعي وجلي مثل معرفة وفهم الإنسان الذي ينظر من شرفة منزله للأشياء والأحداث التي تدور أمامه.

المؤمن يعرف الدنيا من خلال أبيه آدم عليه السلام. فينظر إلى الدنيا على أنها المكان الذي هبط إليه من الجنة. إنه يعلم أنها لا تُتخذ موطناً، ولكنها مسار إجباري يجب سلوكه للعودة إلى الوطن الأصلي.

يعرف الحياة التي يعيشها من خلال نوح عليه السلام. فحتى لو عاش المؤمن قروناً وليس سنوات، فإن الآلام والمتاعب، والمصائب التي يصادفها أمامه، لا تقضي على أمله، فغايته واضحة ومحددة حتى ولو كان وسط صحراء قاحلة، أو في قلب طوفان يجرف دنياه كلها. إنه يعمل، ويكافح ويناضل، ولا يسأم أو ينهار أبداً. إنه يعيش بإيمان وبمقتضيات ذلك الإيمان الذي لم تستطع العصور القضاء عليه.

إن أحد مصادر أمل المؤمن هي الأمور التي رآها لدى إبراهيم عليه السلام والتي علمها من القرآن الكريم، فهو مستعد للصبر والثبات أمام مختلف العوائق والعقبات التي تظهر أمامه، مهما كان مصدرها، سواء كانت من بيته، أو من أبيه، أو من نظام، أو ملك يمتلك جيوشاً جرارة، إنه قد أخذ أمله، وثباته على طريقه والاستمرار فيه دون انكسار أو ملل، وثقته المطلقة بفوز الصابرين من إبراهيم عليه السلام.

لقد عرف منه عدم الاحتراق في النار. تعلم منه التحلي بالأمل ، وتعلم منه الاعتماد على الله ﷻ، وقول "هو حسبي"، حتى لو تحولت همومه وأشكال معاناته إلى ألسنة لهب تتأجج بين جوانحه.

المؤمن ينظر إلى موسى عليه السلام، ويرى ما هي الأمور التي يجب أن يتحملها، والمخاطر التي ينبغي أن يخوضها، ويدرك أن المتاعب والآلام قد تبدأ حتى

قبل الولادة، ويعلم أن الله ﷻ إذا أراد حفظ الإنسان ورعايته، فلن تغرقه المياه، ولن يعاديه أحد، وعندما يدرك ويعلم ذلك، فإن بذور الأمل سوف تتفتق وتنمو وتكبر في داخله.

المؤمن يتذكر النبي ﷺ ودعاءه في الطائف، إنه يحاول أن يراه في طرقات وأزقة مكة، وفي مسجده في المدينة، وعند سفوح جبل أحد، يراه وهو يحمل المعول بيده في الخندق، ويبشر بسقوط ملك كسرى، يشاهد حماسه وتفاؤله الذي لم يستطع الفقر، والوحدة، والعزلة، والحصار، القضاء عليه. إنه يستعرض أمام عينيه ذكرياته مع أصحابه بحلوها ومرها، ولحظات الحزن والفرح، التي قضاها مع أهل بيته، وكأنه يعيش معه. إنه مع كل حادثة يفكر بها يذهب إلى تلك الأيام، إنه يقارن بيته ببيته، وصلاته بصلاته، ومدينته بمدينته، ثم يجد لنفسه مكاناً في تلك الدنيا الواسعة، إنه يجلس بأمل وتفاؤل، وينهض بأمل، وبالأمل يأوي إلى فراشه، وينهض منه في كل صباح، ليستقبل يوماً جديداً.

المؤمن ينظر إلى وعد الله بالجنة.

يجهد المؤمن، ويكافح ليكون "مؤمناً عاملاً" وهو مدرك تمام الإدراك، أن ربه لا يضيع أجر عامل، لا يرضى بالجلوس، والانتظار، ونسج الأخيلة والأوهام، وإنه يجعل كل عمل مهما كان صغيراً أو كبيراً لوجه الله. ويؤمن يقيناً أن الله سوف يضاعف أجر عمله ليصبح مثل جبل أحد وإن كان صغيراً.

إنه يأتمن الله ﷻ على حاضره، ومستقبله، وعلى ما في يده، وفكره. فهو يدرك أن الله تعالى لا تضيع عنده أمانة، فإن كان المؤمن كما ذكرنا فلمَ بعد ذلك لا يكون من حقه الأمل والتفاؤل!. فحقه حسن الدنيا، وحسن الآخرة. ومن حقه التطلع والطموح، وبلوغ تطلعه. ومن حقه الجنة والأمل بالجنة أيضاً.

ليس غريبًا أن نرى أمثال أبي جهل وأبي لهب في زماننا هذا، يُسيئون إلى النبي ﷺ، فالسارق إنما يحرص دائمًا على سرقة دكان الذهب، والشجرة المثمرة هي ما تُرمَى بالحجارة.

لقد بحثَ أرباب الجهل في الماضي والحاضر، في حياة رسول الله ﷺ وشخصيته ونقَّبوا في أدنى تفاصيلها، لكنهم لم يجدوا فيها شيئا ينتقدونه أو يطعنون فيه، فلم يبقَ لهم سبيلٌ إلا الكذب والافتراء.

وسيستمر الصراع بين الحق والباطل على هذه الصورة، إلى قيام الساعة، والتاريخ مسرح للمشاهد ذاتها، حتى لو تغيرت الأدوار، فعاقبة أتباع أبي جهل وأبي لهب، الذين آذوا رسول الله ﷺ وأساؤوا إليه، لا تختلف عن عاقبة أتباع الظالم نمرود وفرعون، الذين كذَّبوا إبراهيم وموسى عليهما السلام، قبل آلاف السنين؛ وكذلك ستكون عاقبة أعداء الله في المستقبل.

لكن السؤال الذي ينبغي أن نسأله هنا:

ما الذي يقع على عاتقنا نحن- الأمة المحمدية- أمام هذه الافتراءات؟ إن هؤلاء المسيؤون، يريدون بإساءاتهم، حجب حقيقة رسول الله ﷺ، ويريدون بكل هذه الفوضى أن يُصِمُّوا الناس، عن سماع حقائق القرآن، ويريدون بخبث ما يرسمونه، أن يحجبوا العيون عن نور ذلك السراج المبين.

فالواجب علينا أن نعرض للناس شخصية رسول الله ﷺ، وأخلاقه الفريدة بأحوالنا وأقوالنا وحياتنا على أفضل صورة.

عصر التربية المعنوية في السعادة

آدم سراج

يعمل الإسلام على تربية وتنشئة أتباعه، ضمن مبادئه وقواعده الخاصة، ويُطلق على الإنسان الذي ترعرع وتربى في أحضان المبادئ الإسلامية اسم "المسلم" أو "إنسان الإسلام"، وفي الواقع فإن كل دين، وكل نظام، وكل مؤسسة وكيان، تعمل على تربية وتنشئة أتباعها وأعضائها وفقاً لقواعدها ومبادئها الخاصة. وإذا تربى الإنسان ونشأ في ظل قواعد وأحكام أي نظام من الأنظمة فإنه يصبح إنسان ذاك النظام، أو من أتباعه، وإن بناء وتكوين شخصية إنسان ما يكون بمقدار التربية التي تلقاها. وجوهر تربية الشخصية هو التربية المعنوية.

ولما كانت التربية المعنوية تتمتع بهذه الدرجة من الأهمية فقد ركز الإسلام عليها مع أول نزول الوحي. وإن مفتاح التربية هو القراءة. وهذا أول أمر يوجهه الإسلام إلينا، إلا أن الأمر الذي ما ينبغي أن نغفل عنه هو "اقرأ باسم ربك". إذ لا شك أن الذي يعلم بنا أكثر من كل الكائنات، هو خالقنا، فالله هو الأعلم بنا. ولعل لهذا السبب تم التأكيد على بُعد "الخالق" بشكل خاص. فهنا يُراد صراحة وبشكل جلي أن يكون العبد في حالة معية دائمة مع ربه. حيث يُؤمر العبد بارتباط مستمر مع الله تعالى. وهذا الارتباط لا يتحقق إلا من خلال التربية المعنوية. وهو ما يُطلق عليه في التصوف مرتبة المعية.

علينا أن ندرك ونفهم أمر الله تعالى بشكل صحيح، فنحن مكلفون بفهم صحيح وسليم لدعوة نبينا عليه الصلاة والسلام والعيش وفقها. وإن الله

ورسوله يدعوان مجتمعاً وصل إلى حافة الانهيار من كافة النواحي، إلى الخلاص والنجاة، ويدعوانه قبل كل شيءٍ إلى عقيدة التوحيد، للتطهر والتنقية. فالإيمان تطهر، وتنقية، وخلاص. الإيمان تطهر من سائر الخبائث والنجاسات وعلى رأسها الشرك.

إن الإسلام تسليم واستسلام؛ والمسلم إنسان مستسلم. ورأس كل أمر هو الاستسلام لله ولرسوله. وكما التسليم مصدر كل حسن وطهارة، فإنه أساس التربية المعنوية أيضاً.

يُراد لنا الابتعاد عن الأخلاق الذميمة، والتحلي بالأخلاق الحميدة. وأن نطهر عالمنا الداخلي من الشرك، والكفر، والإنكار. نطهره من الكذب، والنفاق، والغيبة، والنميمة. وهذا الأمر من أساسيات التربية المعنوية.

يقول ربنا ﷻ "قم الليل". قم لأجل المهمة العظيمة التي بانتظارك، قم لرفع الحمل الثقيل الذي ينتظرك على ظهرك، قم من أجل العمل، والسعي، وخوض الصعاب، وتحمل المتاعب، والآلام وألوان الأذى، قم واستعد لهذه المهمة العظيمة والمقدسة، واخضع للتربية التي تقتضيها، وجوهر هذه التربية هو قيام الليل! فمن لا ليل له لا نهار له!.

إن أحد عيوبنا ونواقصنا اليوم، هو قلة عباداتنا الليلية. فالله ﷻ يدل رسوله الكريم ﷺ على طريق النجاح في الجهاد والنضال، الذي سيخوض غماره. ويريد له الاستقواء بمعية ربه في عبادات الليل، وهذه المسألة من جوهر التربية المعنوية أيضاً.

لم يكن النبي ﷺ خلال دعوته الناس إلى الإسلام يكتفي بإعطاء المعلومات إلى جانب الإيمان، وإنما كانت دعوته تركز على رباعية: الإيمان، العلم، العمل، الإخلاص والتقوى. فكل إنسان مكلف مبدئياً بالإيمان، فبالإيمان يصبح الإنسان مسلماً، والمسلم إنسان يعلم بماذا آمن، ولماذا، وهذا علم المسلم، وعلى المسلم أن ينقل إيمانه وعلمه إلى ساحة التطبيق في حياته، أي أن يعيش حياة متوافقة مع ما آمن به وتعلمه، وهذا عمل المسلم، وعلى المسلم القيام بالأعمال التي آمن بها، وتعلمها، ونقلها إلى ساحة التطبيق بإخلاص. أي أن يصبح كل مسلم باسمه المعروف، إنساناً ممتازاً وصاحب تقوى في الوقت ذاته، وهذا لا يكون إلا من خلال التربية المعنوية، وهذا هو التصوف!

لقد بنى النبي ﷺ القلوب ورمّمها، بالتربية المعنوية. فقد شكل من "مجتمع الجاهلية" المنهار "مجتمع عصر السعادة" القوي المتماسك، إنه شَكَّلَ جيلاً جديداً خلال مدة لا تتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة، فصار كل واحد من الصحابة الكرام، نجماً يضيء في سماء الدنيا. كان كل واحد منهم نجماً، إلا أنه في الوقت ذاته كان لكل نجم خاصية مختلفة ومتميزة.

ولا شك أن من يتصدر قائمة أسماء الذين بلغوا الذروة في التربية المعنوية هو الصديق أبو بكر ﷺ. وفي الواقع كان هذا الصحابي الجليل سباقاً ومتفوقاً في كل ميدان، حيث كان ملازماً النبي ﷺ بشكل دائم، وله الفضل الأكبر في وصول الإسلام إلى سائر الأجيال من بعده.

رغم أنه لم يُطلق على التربية المعنوية، التي كانت منتشرة في كل نواحي الحياة، اسم عصر السعادة، إلا أنها انتشرت وانعكست تحت اسم "التصوف" على سائر العصور اللاحقة. فالتصوف بالنسبة للإسلام هو حياته القلبية، وجوهره، وجانبه الروحاني. فالتصوف تطهر، وتكامل على حد سواء. إنه تربية وتنشئة الإنسان الكامل من كافة النواحي.

لقد لفت النبي ﷺ أنظارنا إلى أبي بكر ﷺ الذي كان رائداً وسباقاً في هذا البناء، والتكامل الداخلي. وذلك عندما اصطحبه معه في هجرته من مكة إلى المدينة، وشاركه في كل مراحل ولحظات هذه الرحلة

المحفوفة بالمخاطر والدروس والعبر، فالليال الثلاث التي قضوها معاً في غار ثور، تساوي حياة الناس كلهم، وقد عبر عمر بن الخطاب ﷺ عن هذا الأمر بشكل لافت، حيث قال: "والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر". (الحاكم، المستدرك، ٣، ٧/ ٤٢٦٨.)

كان سلطان الصحابة الذي تلقى خير الدروس وأحسنها من سلطان الأنبياء يتصدر السلسلة الذهبية في الوقت ذاته.

كان غار ثور خلال رحلة الهجرة يشهد أسمى دروس التربية المعنوية، فقد تلقى أبو بكر ﷺ ثلاثة أيام وليال، دروساً فريدة وبغاية الخصوصية من النبي ﷺ، وإن تلقي الدروس المعنوية يحتاج إلى إعداد وتحضير، وكان أبو بكر ﷺ جاهزاً ومستعداً له، وبعبارة أصح، فإن أبا بكر ﷺ قد اجتاز كل الامتحانات والاختبارات التي تعرض لها في الفترة المكية التي استمرت ثلاثة عشر عاماً، اجتازها بنجاح كبير منقطع النظير، أي أنه كان جاهزاً للدروس المعنوية. وكأن النبي ﷺ كان قد أعد أقرب أصحابه إليه، طوال ثلاث عشرة سنة لهذه الغاية العلوية السامية، فكان أساس العمل الجدي، جدياً أيضاً، فهذه هي التربية المعنوية الممتدة من عصر السعادة إلى يومنا هذا، وهذه الأمانة المقدسة تمتد من تلك الأيام إلى أيامنا هذه عن طريق سلسلة ذهبية لا مثيل لها.

لم تقتصر ملازمة أبي بكر ﷺ للنبي ﷺ على الفترة المكية، وخلال رحلة الهجرة فقط، وإنما استمرت قائمة على مدار سنوات الفترة المدنية أيضاً. فقد جعل حياته كلها، فداء للنبي ﷺ كما كان يعبر عن ذلك بنفسه.

لقد ترقى سلمان الفارسي ﷺ على طريق المعنويات بسرعة كبيرة، حيث أتم السير والسلوك في زمن قصير. وكان النبي ﷺ شديد المحبة لسلمان ﷺ. إذ لما اختلف عليه الأنصار والمهاجرين، و أخذ كل طرف ينسبه إلى نفسه بسبب ما كان يتمتع به سلمان من فضائل وأخلاق حميدة، قال النبي ﷺ:

"سلمان منا أهل البيت" (الحاكم، المستدرك، ج ٣، ص، ٦٩١)

وبعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، لازم أبا بكر ﷺ، ولم يفارقه أبداً. فكان قريباً من أبي بكر بشكل دائم، فنال من فيضه، حيث أنه وصل إلى مراتب عالية في علوم الظاهر والباطن، خلال مدة قصيرة جداً. وكان سلمان ﷺ قد تلقى دروسه الأولى من النبي ﷺ، ومن بعده استمر في تلقيها من أبي بكر ﷺ. كان من جهة منكباً ومنهمكاً بحضور الدروس في حلقات أبي بكر ﷺ، ومن جهة أخرى يلقي الدروس على الآخرين.

لقد كان سلمان ﷺ يقوم بتدريس الكثير من الصحابة من أمثاله، وكان من بين هؤلاء كبار الصحابة، مثل: أبو سعيد الخدري، وعبد الله بن عباس. وكذلك كان يدرس كبار التابعين، ويأتي في مقدمة هؤلاء قاسم بن محمد... لقد قدم الأزهار التي اقتطفها من بستان عصر السعادة، إلى قاسم بن محمد. وبعبارة أخرى، إن التربية المعنوية التي تكونت في عصر السعادة انتقلت إلى الجيل اللاحق عن طريق قاسم ـ رحمه الله ـ.

إن السلسلة الذهبية تبدأ بعد رسول الله ﷺ بأبي بكر ﷺ. وبعد أبي بكر يأتي سلمان الفارسي ﷺ. وبعد سلمان تستمر من خلال قاسم بن محمد...

لقد توقفنا هنا باختصار على التربية المعنوية في عصر السعادة بخطوطها العريضة. وحاولنا الإشارة بشكل مقتضب إلى عصر السعادة للسلسلة الذهبية ونقطة بدايتها، أي إلى ولادة التصوف.

كان أبو بكر ﷺ نجم عصر السعادة الأكثر بريقاً ولمعاناً. وإن التربية المعنوية التي تلقاها من سلطان المعنويات تحولت إلى ينابيع ومصادر التربية المعنوية في عصر السعادة. حيث أعطى الأمانة التي أخذها من النبي ﷺ لسلمان الفارسي.

المحبة الأدبية والأبدية

قال أحد كبار رجالنا: "لا معنى لمحاكمة بدون محبة. أجل، لا يمكن أن تكون بدون محبة. إلا أن المحبة الخالية من المحاكمة قد تخرج المريد عن الأدب".

إمره طوب أوغلو

وقتها أحسست أنني أمام حقيقة لم أفكر بها من قبل أبداً، وهناك كثير من الأقوال المشهورة العالقة في أذهاننا، مثل ما تقدم، ومنها: "القوة غير المنظمة، ليست قوة!".

وفي هذا السياق يمكن القول لا شك أن محبة المريد لمرشده، ولأولياء الله، سوف تحقق له التكامل بالمعنى التصوفي، ولكن ينبغي أن تكون المحاكمة العقلية حية ومتيقظة، في مسألة المحبة. وإلا فإن المحبة الخالية من الملكات العقلية يمكن أن تنحرف بصاحبها، وتبعده عن الاستقرار والثبات على الاستقامة كما يُفقد السكر صاحبه التوازن ويميل به يميناً وشمالاً.

تشير المحاورة الآتية إلى الفرق بين العاشقين في المراتب: قال يحيى بن معاذ وهو أحد العشاق الإلهيين لأبي يزيد البسطامي:

"سكرت من كثرة ما شربتُ من كأس محبته. فقال له أبو يزيد:

غيرك شرب بحور السماوات والأرض وما روى بعدُ ولسانه خارج ويقول: هل من مزيد؟". (طاهر المولوي، ١، ٧٢)

لا ريب أن القول بأن المحبة شيءٌ محظور استنتاجاً مما ذكرناه في الأعلى فهم خاطئ للغاية. إذ أن محبة أولياء الله والصالحين وسيلة للمحبة الإلهية. ويبين أستاذنا المحترم عثمان نوري طوب باش هذا الأمر بقوله:

"يُعد الأولياء والصالحونن وهم ورثة النبي عليه الصلاة والسلام ذروة كمال الإرشاد والعمل والسلوك النبوي المنتشرين في كل العصور، أي أنهم الشخصيات العالية المقام التي سيُتتخذُ قدوة من قبل من لم ينالوا شرف رؤية النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام. وإن مواعظهم، ونصائحهم، وإرشاداتهم التي تصدر بلسان الرحمة وتحيي القلوب هي في الواقع قطرات روحانية منسابة من المنبع النبوي.

إن الأولياء والصالحون وسيلة رحمة وبركة حيثما حلوا ولسائر من يحيطون بهم، إنهم منابع تفيض بالرحمة والشفقة على كافة أطياف المجتمع، وإن قلوبهم تكايا مشرعة الأبواب لاحتضان كافة المخلوقات، إنهم بمثابة مراكز التأهيل المعنوي للمجتمع.

وهم بالنسبة لأهل الإيمان مراكز جاذبة كالمغناطيس، إذ أن الله تعالى أحب عباده الصالحين هؤلاء الذين تخلقوا بأخلاقه، وحبب الخلق بهم، ولهذا فإن أولياء الله وأهله لا يصيبهم القدم بعد زوال أبدانهم الفانية، ولا يُنسون، وإنما يبقون أحياء في قلوب محبيهم".

إن الأولياء والصالحون وسيلة رحمة وبركة حيثما حلوا ولسائر من يحيطون بهم. إنهم منابع تفيض بالرحمة والشفقة على كافة أطياف المجتمع. وإن قلوبهم تكايا مشرعة الأبواب لاحتضان كافة المخلوقات. إنهم بمثابة مراكز التأهيل المعنوي للمجتمع. وهم بالنسبة لأهل الإيمان مراكز جاذبة كالمغناطيس. إذ أن الله تعالى أحب عباده الصالحين الذين تخلقوا بأخلاقه، وحبب الخلق بهم. ولهذا فإن أولياء الله وأهله لا يصيبهم القدم بعد زوال أبدانهم الفانية، ولا يُنسون، وإنما يبقون أحياء في قلوب محبيهم.

يبين الشاعر فضولي حالة الفناء في المحبة، وأن "القلب" مركز المحبة بالمثال الآتي:

"بينما كان مجنون يسير هائماً على وجهه في ديار ليلى، مر به عابر سبيل وسأله عن بيت ليلى. فأجابه مجنون:

لا تتعب نفسك بالبحث عن بيتها أيها الرجل! ثم أشار إلى قلبه وقال:

ها هنا منزل ليلى!".

فعلينا التأمل ملياً بهذه المثال ومراجعة أنفسنا لنرى: هل قلوبنا محل النظر الإلهي، أي هل ممتلئة بحب الله ورسوله أم لا؟ وهل يتجلى وجد الإيمان في عباداتنا وتصرفاتنا وأعمالنا؟ أم أن المحبة عبارة عن ادعاء جاف بألسنتنا ولا تتجاوزها إلى قلوبنا؟ ولنرى ما مدى توافق نبضات قلوبنا، وأحوالنا وأفعالنا مع القرآن والسنة؟ وهل جعلنا النعم الفانية وسيلة للمحبة الإلهية؟

أجل، إن المحبة والعشق الإلهي الذي يأتي نتيجة لرحلة مليئة بالأسرار، وفي هذه الرحلة يحتاج الإنسان إلى قلب متلهف مملوء بالعشق. وإذا كان القلب حياً، فسوف يحصل الأدب، ومن ثم المحبة، والمحاكمة الأبدية والأدبية.

وفي سياق متصل فقد اعتبر الذين اكتووا واحترقوا بنار العشق الإلهي اعتبروا أنفسهم فانين وكأنهم عدم، ورفعوا وألغوا أنفسهم من البين، حتى منهم من قال "أنا الحق" مثل الحلاج. لا شك أن مثل هذه الأقوال والعبارات التي قالها العاشقون مخالفة لظاهر الشرع. ولكنهم قالوها عندما صاروا بحالة سكر معنوي. ويشبه مولانا أحوال هؤلاء بقول الحديد عندما يتعرض للحرارة: "أنا النار". إلا أنه يذكر بأمر مهم وهو: "لا تنتظر الإرشاد من سكارى".

"إن العاشق بحالة من الغم، ومن السرور معاً. إنه دائم الخضرة والنضارة بغض النظر عما إن كان الفصل ربيعاً أم خريفاً". إن لسان حاله يردد:

يا حبذا كل ما يأتيني منك

ولست أبالي وردة كانت، أم شوكاً

عباءة كانت، أو كفناً

فنارك طيبة، ونورك طيب.

العاشق يرى كل ما يأتيه من الله لطفاً وإحساناً، سواء كان لطفاً أو بلاء. ويشير مولانا إلى ذلك، فيقول:

"لا يهم إن كنت عالماً، أو كنت جاهلاً، ولا مشهوراً، أو مغموراً بين الخلق، فالكل يميز اللطف من البلاء. ولكن قليل هم من يدرك اللطف المخفي في القهر، أو القهر المخفي في اللطف".

والحاصل؛ إن التصوف يهدف إلى تطبيق وتقديم الدين بمتعة ونشوة مغايرة ومختلفة. ولهذا فإن أكبر رأسماله وزاده في هذا الطريق هو المحبة الإلهية.

إن تربية التصوف تعتمد على المحبة، والإخلاص، والتسليم. ولا يمكن الحديث عن التوفيق في هذا الطريق دون الأدب والعشق الإلهي. فالتصوف يسير بقدم القلب. ودون تطهير وتنقية القلب لا يمكن تذوق طعم المعنويات.

إن المرشدين الكاملين الذين يمكن أن نصفهم بأطباء القلوب يلتزمون من حيث الاعتقاد بمبدأ أهل السنة والجماعة ولا يخرجون عن دائرة صراطهم المستقيم.

وأما فيما يتعلق بالتربية المعنوية فإن العارفين يختارون ويسلكون مناهج ومشارب مختلفة. فقد اتبعوا في سبيل تخليص القلب من الأمراض المعنوية، ومن محبة الدنيا وأسر النفس الأصول التي نص عليها القرآن والسنة، والمبادئ التي أقراها، والآداب التي حثا عليها. وكذلك وضعوا وطوروا جملة من المناهج التربوية استرشاداً بالقرآن والسنة. وأقاموا مؤسسات ومراكز يتم فيها تعليم هذه التربية بالذات. واستحدثوا جملة من التعابير والمصطلحات الخاصة بهم واستخدموها للدلالة على أحوال وطرق التربية. وهكذا فقد ظهر في ميدان التربية والتزكية الكثير من الطرق والمذاهب كما هو الحال في علوم الشريعة الأخرى. وإن الغاية التي يُراد الوصول إليها من خلال كل هذه الطرق هي إصلاح القلب، وتطبيق الدين بمعناه الحقيقي. وهذا ما يهدف إليه التصوف ويسعى إليه. يشير الإمام الرباني إلى هدف التصوف هذا بقوله:

"إن المقصود من المرور بمنازل التصوف والحقيقة واجتيازها هو تحصيل الإخلاص اللازم لمقام الرضا، ولا شيء غيره".

"إن القصد من سلوك هذا الطريق هو الوصول إلى الإيمان الحقيقي، وتطبيق الأوامر والأحكام الإلهية بمحبة".

وفي النهاية، لا بد أن نبين أن الكون وكل الكائنات إنما وُجدت بالمحبة الإلهية. ولهذا فإن الذين ينظرون إلى الكون وما فيه بعين القلب يرون كل الأشياء، والمخلوقات مظهراً للعشق والمحبة، ويدركون أن الله تعالى إنما خلق الكائنات كلها، كدليل على كماله وبديع صنعه، وأن وجود الإنسان الذي يُعد من خوارق وعجائب الصنع الإلهي صار مظهراً كاملاً للعشق والمحبة.

يبين مولانا في المثنوي أهمية العشق والمحبة للإنسان فيقول:

"اعلم أنه مسكين وتعيس ذاك الإنسان الذي لا يمتلئ قلبه بالعشق والمحبة الإلهية، ولعله أضل من الأنعام وأدنى مرتبة منها. إذ حتى كلب أهل الكهف بحث عن العشق، ووجده. حيث بلغ صفاءاً روحانياً ونال الجنة كفانٍ في أولئك الخواص من عباد الله".

جبير بن مطعم رضي الله عنه

تأثر من سورة الطور

مصطفى أريش

يُعد الصحابي الجليل جبير بن مطعم ﷺ من أقرباء النبي ﷺ!.. حيث يلتقي نسبه مع نسب رسول الله ﷺ عند عبد مناف.وهو الفارس الذي تشرف بالإسلام تأثراً بالقرآن الكريم ومعانيه العميقة والواسعة مثل عمر بن الخطاب ﷺ، وهو السعيد الذي سمع سورة الطور من الرسول الأكرم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم.

إنه شخصية معروفة بلين الجانب والرأي السديد والنظرة الثاقبة، وبالعلم الواسع بالأنساب!

يُعد من أبناء عمومة شمس الكونين عليه الصلاة والسلام، وكان ذو مكانة رفيعة في الجاهلية، باعتباره من أشراف بني نوفل وقريش، فاسمه أبو محمد جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي.

بقي مدة طويلة بعيداً عن رسول الله ﷺ، حيث حرم نفسه من نور الإسلام طوال هذه المدة. وكان من الذين حضروا في دار الندوة واتفقوا على قتل النبي ﷺ قبل الهجرة. وفي معركة بدر قاتل في صفوف المشركين. ولكن بعد صلح الحديبية، حدثت تغيرات كبيرة لدى جبير بن مطعم. حيث مال قلبه للإسلام، فتخلى عن معاداة المسلمين، وندم على فعله بهم، وسعى إلى نور الإسلام. وفي عام ٦٢٨م أعلن إسلامه، وصار من المسلمين الصادقين والمخلصين.

لقد آمن هذا الصحابي، وتشرف بشرف الإسلام متأثراً بالقرآن الكريم وعمق معانيه، مثل عمر بن الخطاب ﷺ. حيث استمع إلى سورة الطور من فم النبي ﷺ الشريف، إذ لما سمع آيات هذه السورة صُعق قلبه، وكما قال هو:

"فكأنما صدع قلبي" (أحمد، ٤، ٨٣، ٨٥)

ويتحدث جبير بن مطعم ﷺ عن إسلامه فيقول:

قدمت المدينة لأكلم رسول الله في أمر. فوصلت المسجد عند صلاة الفجر، والنبي ﷺ يقرأ في صلاته سورة الطور. فجلست في ناحية من المسجد وسمعت

حتى فرغ من الصلاة، تركت هذه السورة ومعانيها الإلهية العميقة أثراً كبيراً على قلبي. وأفزعتني آية:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ (الطور: ٧- ٨)

وأخذت أفكر في نفسي، فزال ما كان في قلبي من عداوة، وبغضاء، وكراهية، ودخلت فيه سكينة وطمأنينة، ولمع عالم قلبي. وكانت الآيات اللاحقة سبباً لندمي، وتوبتي. يقول ربنا ﷻ في هذه الآيات الجليلة:

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا. وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا. فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ. يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا. هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (الطور: ٩- ١٤)

لما سمعت هذه الآيات تبت إلى الله. وأخذت عهداً على نفسي أن لا أعود إلى العداوة مرة أخرى. ولما سمعت الآيات الأخرى كاد قلبي يطير. ويقول ربنا ﷻ في هذه الآيات:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ. أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ (الطور: ٣٥- ٣٧. البخاري، التفسير، ٥٢)

ولما وصل إلى نهاية سورة الطور لم أعد أحتمل. فهذه الآيات تتحدث عن وعيد الله تعالى، ووصاياه. حي تقول: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ. يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ. وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ. وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ (الطور: ٤٥- ٤٩)

فرقّ قلبي للإسلام. وكان أول ما وقر الإسلام في قلبي. فلما انتهت الصلاة، حضرت بين يدي رسول الله ونطقت بالشهادتين.

سُر فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام بإسلام جبير كثيراً. وذكر له فضائل أبيه. حيث كان أبو مطعم بن عدي من أكابر قريش ووجهائهم وأشرافهم، وكان ممن أحسن إلى نبينا ﷺ في الفترة المكية وسانده رغم أنه مات مشركاً قبل معركة بدر، وذلك لما عاد رسول الله ﷺ من الطائف إلى مكة أجاره وتعهد بحمايته من المشركين. وهذه الحادثة هي كالآتي:

كان طريق عودة النبي ﷺ من الطائف من مكان يقال له نخلة، ولما وصل إلى جبل حراء لقي رجلاً من مكة. فبعثه إلى الأخنس بن شريق ليطلب منه أن يجيره بمكة، فيقول له:

"أتجيرني إلى أن أبلغ رسالة ربي؟".

فرفض الأخنس، ثم بعثه إلى سهيل بن عمرو ليجيره فلم يقبل، فبعثه إلى المطعم بن عدي ليجيره، فقال: نعم، قل له فليأت. فذهب إليه رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح دعا بنيه وقومه فقال لهم: تلبسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمداً، ولما انتهى إلى المسجد الحرام. قام مطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش! إني قد أجرت محمداً فلا يهجه أحد منكم!

فدخل رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى الركن فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وصلى ركعتين، ومطعم بن عدي وولده وقومه مطيفون به وقد احتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف يحمونه من المشركين، فلما انصرف انصرفوا معه. (ابن سعد، ١، ٢١٢؛ ابن كثير، البداية، ٣، ١٨٢)

ثم مرت السنوات، فقتل مطعم بن عدي الذي لم ينل شرف الإسلام في معركة بدر، ولما عرض أمر أسرى بدر على رسول الله قال لجبير بن مطعم:

"لو كان المطعم بن عدي حياً ثم سألني في هؤلاء النقباء لوهبتهم له". (البخاري، الخمس، ١٦؛ ابن هشام، ١، ٤٠٤- ٤٠٦.)

وهذا من وفاء رسول الله ﷺ له وحفظه لجميله.

المعراج رمز التسليم

رابعة برودبك

لقد توصلت إلى نتيجة مفادها: ما ينبغي أن يقيّم المسلمون بإقامتهم الصلاة أو عدم تأديتهم لها، فأساس المسألة يكمن في فهم معنى المعراج، ومعنى هذه العبادة، فبدون فهم المعراج لا يمكننا معرفة وفهم سيدنا محمد ﷺ، ولا فهم دين الإسلام. فالأساس ليس ما إن كان المسلمون يؤدون صلاتهم بأبدانهم أم لا، وإنما الأساس هو ما إن كانوا يؤدونها بقلوبهم أم لا. فالمسألة الأساسية هي: هل تعمل آلات القلب أم لا تعمل؟. و إن مهمة الإنسان الرئيسية والمبدئية هي أن يعرف كيفية خدمة عالمه الداخلي، المسألة إجراء عملية قلبية، لأن الإلهام، والعرفان والحقيقة تنزل على القلب، والله تعالى لا يسعه الكون، ولكن يسعه قلب المؤمن، ولو أننا أدركنا أهمية المعراج، واكتشفنا سبب جهلنا المعنوي لتمنينا زيادة عدد ركعات صلاتنا.

لقد أكرم الله ﷻ نبيه، وأمته، بالصلاة في ليلة المعراج. فالصلاة من أعظم النعم التي تفضل الله بها على حبيبه ﷺ. لأن الصلاة تحمل في داخلها دلالة على تلك الليلة المباركة ومعناها، وتمثل معراج المؤمن. والمعراج الذي يُرمز ويشار له بالصلاة نتيجة للنور الإلهي، والمكرمات الإلهية، ولاكتمال الأخلاق السامية لنبي دين الإسلام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. وبعبارة أخرى؛ لقد أُكرم النبي ﷺ بشرف المعراج لفضائله وخصاله الحميدة، فصُعد به لأعلى مراتب القرب الإلهي.

إن المعراج الذي يُعد أعلى وأسمى حادثة سماوية مرآة لأخلاق سيد الأكوان العالية، وإن رمز المعنى والمدلول العميق لهذه الرحلة السماوية هو سيدنا محمد ﷺ ذاته، فالأخلاق المحمدية أعظم معجزة قائمة، ولهذا فإن أعظم معجزة في وجودنا الدنيوي هي المعراج رحلة الليلة المقدسة. إن أخلاق النبي الحميدة تمثل الكنز الباطني لدين الإسلام. فالنبي ﷺ قرآن حي. وحياته كلها تشهد بالتوحيد. والحقيقة المحمدية عبرت عن نفسها في أعماق وجوده الدنيوي، في العبودية. ونظراً لكون المعراج مرآة لخدمته ولعبوديته فإن سموه وعمقه لا حدود لهما. ولهذا فإن الصلاة حادثة تتجاوز خيال وتصور الإنسان.

وإن كان النبي ﷺ يتكدر ويحزن كثيراً بسبب ما كان تعرض له من الظلم والاضطهاد على يد المشركين إلا أنه لم يطلب من الله تعالى يوماً أن يرفع عنه الظلم ويدفع عنه الأذى، ولم تخرج من بين شفتي رسول الله ﷺ الشريفتين أدنى كلمة تنم عن الشكوى والتذمر. فكان همه الوحيد أمته. وقد وصفت أخلاقه العالية في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)

إذا ما نظرنا إلى توقيت وقوع المعراج، وسببه فإننا نفهم عمقه بشكل أفضل. فأكثر الأحداث حزناً وأسى في حياة النبي ﷺ، وقعت بعد عودته من الطائف والتي تعرض فيها لألوان من الأذى، ولما بلغ الظلم والاضطهاد والعذاب الذي تعرض له النبي ﷺ مبلغاً عظيماً، وضاقت عليه الأرض، وسُدت دونه السبل تفضل الله تعالى على حبيبه بأعظم مكرمة، وأنار عليه بنور التوحيد. ففرج الله تعالى على حبيبه ووسع عليه، وأراحه دون طلب منه، ودعاه إليه دون توسل منه، وأكرمه دون التماس منه. فالله تعالى عرج بعبده محمد ﷺ ورفعه إليه لمواساته والتخفيف عنه، ولإظهار محبته وشوقه اللامحدود لحبيبه، ولبث الطمأنينة والسكينة التامة في كيانه.

في اللحظة التي تغلق فيها أبواب الدنيا تُفتح أبواب الجنة. وبعبارة أخرى، تصبح الدنيا الفانية باباً مشرعاً على الآخرة الباقية. وقد دلنا الأنبياء جميعاً على هذه الحكمة والحقيقة بحياتهم التي عاشوها، حيث أنهم كانوا في اللحظات التي تصل خلالها المتاعب والآلام والمعاناة التي يتعرضون لها إلى ذروتها يُكافؤون بإحسان إلهي عظيم وتنفرج عنهم الشدة، فقد كان الحق سبحانه وتعالى يتعهدهم بعونه وحفظه ورعايته بقدر صبرهم، ودرجة تحملهم، فيوسف عليه السلام أُنقذ من ظلمات الجب، وصار عزيز مصر. وأُنقذ إبراهيم عليه السلام من النار، حيث تحولت النار التي ألقي فيها إلى بستان من الزهور، وشُرف بمقام خليل الله. ونُجي يونس عليه السلام من بطن الحوت، وأُنقذ إسماعيل عليه السلام من الذبح، ونُجي نوح عليه السلام من الطوفان، ورسيت سفينته على البر بسلام. وبعبارة أخرى؛ لقد شهد كل نبي معراجه الخاص به.

إن الحكمة من هذه الليلة المباركة هي تعريفنا بجوهر الدين الإسلامي. فالخالق الرحيم سوف يمنح جنته لمن يخدمه ويكن له المحبة. فكلما قدم العبد من تضحيات فإن الله تعالى يشرفه بالقرب من ذاته أكثر، وبجنته. وكلما ازداد صبره على المصائب والآلام وتحمله لها، كلما ازدادت المكافأة الإلهية. وكلما زاد من جهاده وبذل جهوداً أكبر كلما كان الإحسان الإلهي أكبر. وكلما زاد حسن سلوكنا كلما شرفنا الجميل المطلق بجمال سكينته.

نجد أن قيمة وأهمية ومرتبة المعراج الذي شُرف به نبينا ﷺ، تعادل ما تعرض له من ألم، وأذى، وظلم، واضطهاد على يد أعدائه، وأعداء الدين، فعند النظر إلى مدى عظمة مكافأة اللقاء مع الرب التي أُكرم بها، ندرك حجم التضحيات العظيمة التي قدمها، ومدى علو وسمو مرتبة العبودية التي بلغها. وهذه الحقيقة تقول للمؤمنين أن قيمة الحياة المعنوية للإنسان لا بكثرة

صلاته، وصيامه، أو بالعلم الذي يحصله، وإنما تكون بقدرته على تحقيق الرضا عن خالقه. وإن المداومة على الشكر حتى في حالة الفقر والعوز، والتعرض للأذى، والشدة، والمرض دليل على الرضا عن الخالق.

في الواقع كلما زاد خضوعنا لتربية الدين، كلما صعدنا أكثر نحو ذروة النورانية، وازدادت مشاهدتنا لتجليات الوجود الإلهي، وإننا نشعر بالنشوة الإلهية في قلوبنا، بقدر تحقيقنا لإيمان حقيقي وخالص. وبقدر تسليمنا، تزداد المكافأة الإلهية، وتبيض وجوهنا. فهناك علاقة نسبية بين المؤمن والمعراج. حيث أننا كلما نهضنا بواجب العبودية أكثر، كلما ارتقينا وسمونا أكثر؛ وكلما تخلقنا بأخلاق الإنفاق والصدقة أكثر، كلما ازداد قربنا إلى الله أكثر. فالمعراج نتيجة للأخلاق. والمعراج عرض وتقديم لأنفسنا إلى الخالق، ووضعها بين يديه (دون قيد أو شرط)، وبإخلاص تام، وعجز، وفقر، وفناء مطلق. المعراج رمز استسلامنا المطلق لله ﷻ، ولا يمكن الخروج في رحلة المعراج، إلا بعد صقل وجلاء مرآة قلوبنا. ولن نصعد ونرتقي إلا إذا التزمنا التواضع التام. ويستحيل العروج على من في قلبه ذرة نفاق. ولا يمكن الوصول إلى جنة القرب بقلب تملؤه الأوثان، ونفايات الدنيا من شهوات وأهواء، فلا يقبل الله المرائين، ولا المنافقين، ولا الغافلين، ولا أهل الجشع والطمع، فلكي نكون مستحقين للمعراج لا بد أن نطهر دواخلنا من الحرص، والجشع، والحسد، والبغض، والكبر، والكسل، والجهل، فلا نستطيع الخروج في رحلة المعراج إن كان في قلوبنا ذرة من الأنانية، والكبر، والشرك، والجهل، والضلال.

إن حب الدنيا يعني غياب المعراج. ووجود حب الدنيا يعني انتفاء وغياب حب وعشق رب العالمين، وغياب الدين، والصوم، والدعاء، والحج، والإحرام، والجهاد، والصراط المستقيم، والسجود.

حب الدنيا غياب لسنة النبي ﷺ، ونقصان للجمال، والعشق، والنور، فللخروج في رحلة المعراج لا بد لنا من إزاحة أثقال الدنيا عن كواهلنا، ونحن بحاجة إلى محبة مثل مركب العشق براق، وإلى عقل راشد مثل رشد جبرائيل عليه السلام. والصعود إلى المعراج يحتاج إلى إدبار عن الدنيا والدخول في حالة إحرام، ويحتاج إلى تسليم فياض بالحياء، والفقر، والعشق. فكلما ابتعد الإنسان عن العالم الخارجي أكثر، كلما غاص في العالم الداخلي أكثر.

وإنه كلما ازدادت المسافة التي تفصلنا عن العوالم المادية والظاهرية، كلما تقلصت المسافة نحو العوالم الباطنية والمعنوية أكثر. فعندما نترك الدنيا، ونقطع ارتباطنا بها فإننا نزداد تقوى وعبودية، وننال مزيداً من كنوز العشق والوعي الإلهي، ومن ثم نكون أكثر قدرة واستعداداً للخروج في الرحلة الأبدية، والارتقاء نحو الجنة، والقرب من الله. فالحكمة والغاية من التخلي عن الدنيا هي الغوص في محيط رحمة الله، أي لقاء الإنسان مع محبوبه الذي هو ربه ﷻ. والحاصل؛ إذا كان في القلب انجذاب نحو الدنيا، فلا مكان للحب في ذاك القلب. ولا يمكن الخروج في رحلة المعراج دون حب الله.

هناك قوانين وقواعد إلهية لا بد من اتباعها لمن يود شهود حالة المعراج من المؤمنين. إن أسمى العبادات هي المحبة اللانهائية للنبي ﷺ الذي جاءنا بها. فهو تجسيد حي للمعراج. ومن خلال خزينته وكنزه الباطني النابع من أخلاقه أُهديت البشرية

يقول مولانا جلال الدين الرومي:
"لقد ضل كثير من الناس بسبب القرآن؛ وسقط أناس في قعر البئر بذاك الحبل الموصل إلى النجاة. ولكن ليس الذنب ذنب الحبل أيها الإنسان المخاصم! فأنت غير مهتم بالتسلق للأعلى بذاك الحبل!".

المعراج المعنوي. ولهذا فإن المحبة الشديدة للنبي عليه الصلاة والسلام سوف تغذي روح الصلاة. وبقدر سعينا وإخلاصنا في السير على نهجه وطريقه سوف تتحسن صلاتنا وتسري فيها الحياة. وعندما نسعى لأن نكون ولو ذرة من غبار قدمه فإننا سنسجد سجدات صادقة وحقيقية أكثر. وعندما نشارك النبي ﷺ آلامه ومعاناته واضطرابه، ونبكي ونذرف الدموع لأجله ونخشع ونرتجف معه، سوف نصبح مظهراً لنعمة شم رائحة القرب من الرحمن الرحيم، الطيبة الزكية. فقد كان النبي ﷺ قرآناً حياً يمشي على الأرض. وإن تقليده واتباعه لا يكون بالتقليد الظاهري فحسب وإنما يكون بالعمل على فهم الحكم والأسرار الكامنة في تعاليمه، وبذل الجهد للتحلي بأحواله الباطنية.

إن المعراج ليس محدوداً بالصلاة، وإنما يمكن شهود المعراج في كل زمان ومكان. وينبغي أن يكون المعراج بالنسبة للمؤمن مطلباً، وشوقاً، وهدفاً، ومحبة. فالمعراج سجود، وإحرام، وطواف، ودعاء، واعتكاف، ومعية إلهية، وقراءة للفاتحة، وخلوة، وتوحيد إلهي، ورؤية للحق بالبصيرة، وإحساس بسرور وانشراح قلبي منقطع النظير لآيات القرآن، ووصول إلى حالة الرضا. المعراج ترك لكل شيء واختلاء بالمحبوب.

القرب من القرآن معراج أيضاً، فالقرآن سوف يُظهر نفسه للمؤمن الذي يسعى ويجهد للصعود والارتقاء. وهناك شرط إلهي لا بد لنا من تنفيذه للاقتراب من القرآن وتناوله بصورة صحيحة وسليمة وهو: أن نعطيه ذاتنا بكليتها كما هي، ونطهر أنفسنا من كل قصد وغاية وهم غير رضا الله تعالى. إذا كنا نريد أن نعيش المعراج فينبغي أن ننال النور الإلهي. وهذا يتحقق من خلال خصلة التضحية، وتحرير النفس، التي هي أسمى مزايا وخصائص الإنسان اكتواءً وتحرقاً، بالسعي والمجاهدة المستمرة، وذلك من أجل تطهير وتنقية القلب، والوصول إلى المحب. فينبغي أن نختار موت النفس بإرادتنا حتى نتحول إلى نور، وأن نموت قبل الموت، أي أن نموت تجاه هذه الدنيا؛ وهذا من شأنه أن يقودنا إلى نور وجودنا، إلى جوهرنا، إلى جذورنا، إلى منزلنا الحقيقي، وباختصار، فإنه سيضمن لنا رؤية أنفسنا بالعين الإلهية. إن وضع أنفسنا أمام النور الإلهي سوف يرينا حقيقتنا ومثل هذا الوعي الإلهي لن يؤمن لنا معرفتنا لله فحسب، وإنما في الوقت ذاته سوف يؤمن لنا رؤيته ومحبته وعشقه.

إن الإنسان بحاجة إلى جوهر الإسلام للصعود والوصول إلى شرفه وكرامته وعزته الحقيقية، وللوقوف على قيمته الأصلية المعطاة له. فالإنسان مكلف بالبحث والتفتيش عن الغاية من حياته في هذه الدنيا. وإنه مجبور ومضطر للتصرف بمسؤولية تجاه من علمه أسماءه وصفاته. وعليه معرفته وتنفيذ مراده. عليه التوصل إلى سر الخلافة التي أودعها الله في فطرته، وإخراجه إلى العلن. عليه العثور على الكنز المخفي، واستخراجه. عليه الوفاء بالوعد الذي قطعه في عالم الأرواح عندما قال "بلى"، جواباً على سؤال الحق سبحانه: "ألست بربكم؟".

في الحقيقة المعراج ليس أعلى مرتبة، وإنما أعلى فعل عشق هو ما جاء بعده من عودة إلى الخلق. فأحد الأدلة الأخرى على كمال عبودية نبينا ﷺ هو مفارقته لربه، وتركه أعلى مقام في الجنة، ثم عودته كعبد متواضع إلى هذه الدنيا المليئة بالمعاصي والذنوب والمتاعب وجعل حياته فداء لأمته.

نقطة السويداء ٦

د. أدهم جبه جي أوغلو

٨) يرى إبراهيم حقي أن نقطة السويداء تشبه الكلمة. ومعنى الكلمة من هذه الناحية: النقطة التي جمعت كل الحقائق. (نقطة الحقيقة الجامعة).

وإن شرح وتفسير (الحقيقة الجامعة)، التي جمعت الأصول بصورة مختزلة ومختصرة هو الكون بأكمله وبكافة كائناته العلوية والسفلية. وهذا الأمر يشبه بذرة الفاكهة التي اختزلت شجرتها في ذاتها.(إبراهيم حقي الأرضرومي، معرفة نامه، ص، ٣٢١)

وإن هذا يقابل مصطلح حقيقة الحقائق لدى محي الدين العربي، وحقيقة الحقائق عند ابن العربي: هي عبارة عن حقيقة معقولة، تجمع في ذاتها جميع ماهيات الحق والخلق المعقولة. فهي بعبارة أخرى مجموع ماهيات الحضرتين الإلهية والكونية، وهي بذلك أصل العالم. (سعاد الحكيم، معجم ابن العربي، اسطنبول ٢٠٠٤، ص، ٢٢٨)

ومن هذه العبارة يستنتج إبراهيم حقي ـ رحمه الله ـ أن الكون بكل كائناته السفلية والعلوية موجودة بصورة مختزلة ومختصرة في سويداء قلب كل إنسان. أي أن حقيقة كل الكائنات المخلوقة المادية والمعنوية، والعلوية والسلفية موجودة بشكل مبدئي/ أولي في نقطة السويداء لدى كل إنسان. وفي الواقع فإن هذا الرأي هو ذات الرأي الموجود في التصوف عامة والذي يعتبر الإنسان النسخة الجامعة.(أدهم جبه جي أوغلو، معجم مصطلحات التصوف، ص، ٣١٤- ٥)

وهذا مفهوم مركزية الإنسان في الكون. ويشير إلى مدى تكريم الإنسان الخليفة في الأرض. وكذلك هو التفسير الصوفي لقول الله ﷻ:

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (البقرة: ٣٠)

﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ (الإسراء: ٧٠٠)

والحاصل؛ نظراً لأن نقطة السويداء المكان الذي اجتمع فيه الكون فإن قلب الإنسان بحسب رأي إبراهيم حقي نسخة إلهية محملة بأسرار لا تنتهي. ومن يدخل إلى قلبه فإنه يتخلص من ثقل الماء والتراب (القيد المادي). ويجد صحبة الروح، فيُجذب من الله تعالى ويُقبل في مجلس الأنس والسكينة، والطمأنينة. (إبراهيم حقي الأرضرومي، معرفة نامه، ص، ٣٢١)

وبطبيعة الحال فإن الغاية النهائية للمراقبة هي الوصول إلى هذا الأنس مع الحق سبحانه وتعالى.

وحسب رأيه إذا كان القلب الذي تم قبوله في مجلس الأنس والطمأنينة يُسمى بالنقطة، فإنه يُطلق على الأفكار أو الخواطر التي ترد إلى القلب (على تلك النقطة) الأحرف. إلا أن هذه النقطة والأحرف التي ترد إليها معنوية. وليست هي النقطة والأحرف بالشكل الذي نعرفه. فالأحرف الشكلية قابلة للانقسام والتجزئة، وأما الأحرف (الأفكار والخواطر) المعنوية التي ترد إلى القلب لا تقبل الانقسام والتجزئة. (إبراهيم حقي الأرضرومي، معرفة نامه، ص، ٣٢٢)

وبذلك فإن إبراهيم حقي يصنف الأحرف والنقاط التي نخطها بالقلم، ونراها بالعين؛ والأحرف والنقاط التي ترد إلى القلب ولا تُرى بالعين إلى صنفين مختلفين. صنف شكلي وصنف غير شكلي.

٩) إن مكان الأمر الذي سمي بالروح ومركزه نقطة السويداء هذه. فالروح من أمر الله عز وجل. والأمر فيه الحي المدرك، أي فيه إمكانية وقدرة منح الغير خاصية الحياة والإدراك. فهذه الروح التي تحوز خاصية الأمر حقيقة الإنسان، وحقيقة الإنسان سر استواء نقطة السويداء. (إبراهيم حقي الأرضرومي، معرفة نامه، ص، ٣٢٢)

فحسب إبراهيم حقي فإن خاصية الروح المانحة للحياة، أي الحياة تبدأ في نقطة السويداء. ومن ثم فعند الموت تنتهي الحياة المادية فيها. وبناء على ذلك فإن لنقطة السويداء عند إبراهيم حقي ـ رحمه الله ـ :

أ) استواء.

ب) وللاستواء سر. وهو الروح التي هي حقيقة الإنسان. ومن ثم فإن مركز الروح هو نقطة السويداء هذه. أي بإمكاننا القول أيضاً أنها نقطة ارتكاز الروح في الإنسان.

١٠) إن نقطة السويداء مستديرة، وتشبه مرآة مصقولة ذات وجهين. أي أنها مخلوقة بصورة موجهة نحو عالم الشهادة، وعالم الغيب على حد سواء. (إبراهيم حقي الأرضرومي، معرفة نامه، ص، ٣٢٢)

أي أن نقطة السويداء القاسم المشترك الذي يلتقي فيه الغيب والشهادة.

إن عالم الغيب عالم مجهول، وعالم الشهادة عالم معلوم. (سليمان أولوداغ، معجم مصطلحات التصوف، ص، ٣٨- ٩)

ولذلك فإن المكان الذي تلتقي فيه المعاليم مع المجاهيل وتلتحم ببعضها هو نقطة السويداء. وهنا لا يوجد علم، ولا جهل، وكما قال حاجي بَيرم ولي: "القلب مدينة، لا عالم ولا جاهل". (إسماعيل حقي البوروسوي، شرح رموزات حاجي بيرم ولي، السليمانية؛ أسعد أفندي، رقم: ١٥٢١، ٢٠أ- ٢١أ)

إذا كان القلب الذي تم قبوله في مجلس الأنس والطمأنينة يُسمى بالنقطة، فإنه يُطلق على الأفكار أو الخواطر التي ترد إلى القلب (على تلك النقطة) الأحرف. إلا أن هذه النقطة والأحرف التي ترد إليها معنوية. وليست هي النقطة والأحرف بالشكل الذي نعرفه.

هنا حيث تتساوى المعرفة مع عدم المعرفة، وعدم المعرفة مع المعرفة، فقد اجتمعت ببعضها، وامتزجت وتوحدت، فزالت الثنائية والازدواجية. أي إن التوحيد هنا كما قال السراج هو زوال ثنائية التفاوت والتفرقة بالجمع. (السراج، اللمع، ص، ٤١٦)

عندما كان نبينا ﷺ في هذه الحالة وقال: "ما عرفناك" (المناوي، فيض القدير، ٢، ٤١٠؛ مرعي بن يوسف المقدسي، أقاويل الثقات، ١، ٤٥) فإن الأمر الذي كان يعلمه، ويعرفه قد تحول إلى "لم نعرفه"، "لم نصبح عارفين به". أي أن الله جل جلاله كائن متعال فوق علمنا. لقد صار الله عز وجل في مرتبة الغيب المطلق غيباً مخفياً بصورة تامة. (الكاشاني، عبد الرزاق، اصطلاحات الصوفية، ص، ١٦٨)

فمعرفة الله والعلم به بحق خارج عن طاقتنا وإمكاناتنا.

وعندما أعلن نبينا عليه الصلاة والسلام عن عدم معرفته الله جل جلاله الذي عرفه، فإنه قد حل هذه المعادلة ضمن علوية نبوته السامية. أي أنه عبر أمام معرفة الله بحق عن عجزه وعدم كفاية هذه المعرفة.

والحال أن النبي ﷺ كان أعظم الأنبياء، وكان هو الأعلم بالله تعالى من سائر البشر سواء على الإطلاق السابقين منهم أو اللاحقين، ومع ذلك فإنه قد توصل إلى نتيجة "ما عرفناك!". فإن كان هذا حال النبي ﷺ، فترى كيف هو حالنا؟ لا شك أنه حتى المقارنة بين حالنا وحاله غير واردة، فالفرق شاسع للغاية.

يشير إبراهيم حقي الذي قال أن نقطة السويداء مستديرة وكأنها مرآة في كل إنسان، يشير ضمنياً إلى أن الحالة النهائية للدائرة التي يتم تضيقها وتصغيرها نحو الداخل هي النقطة، وأنه حالة النقطة الموسعة والمفتوحة نحو الخارج هي الدائرة. فلا شك أن التوصيف الدائري لنقطة السويداء نابع من العلاقة الوشيجة بين النقطة والدائرة. (الجرجاني، التعريفات، ص، ١٠٤)

فكما هو معلوم أن الدائرة هي الحالة المكبرة والموسعة والمفتوحة للنقطة، والنقطة هي منتهى تصغير الدائرة. ولكون النقطة تتميز بمنتهى الكمال، فإن الفتحة الدائرية للنقطة أي الدائرة هي الشكل الهندسي الأتم والأكمل. وبناء على ذلك يمكن القول عن النقطة أنها الدائرة المجردة، كما يمكن القول عن الدائرة أنها النقطة المشخصة الملموسة. وإن عبادة الملائكة الدائرية المبينة في الآية القرآنية ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ﴾ (الزمر: ٧٥) تشير إلى هذا الكمال. وإن مركز هذه الدائرة هو الإنسان الكامل. (سعاد الحكيم، معجم ابن العربي، اسطنبول ٢٠٠٤، ص، ٣٦٧- ٣٧٤)

وكما أشار البروفسور الدكتور برهان توبراك فإن العمارة الإسلامية صممت بطريقة هندسية دائرية لكون الدائرة تعبر عن اللانهائية. (برهان توبراك، الإسلام والفن، مطبوعات فارلك، اسطنبول ١٩٦٤)

١١) إن هذه المرآة التي هي نقطة السويداء كما أسلفنا تتلطخ وتتسخ في كثير من الأحيان وتفقد خاصيتها. فما الذي يلوث ويلطخ مرآة نقطة السويداء هذه ويفقدها لمعانها؟.

- أوساخ الجهالة.
- ضباب الغفلة.
- ثورات الغضب.
- نوازع الشهوة.
- وألوان من حب الدنيا.

ولجلاء وتنظيف هذه المرآة الملطخة والمتسخة التي لم تعد تعكس شيئاً على سطحها لا بد من:

- تحصيل علم الحقيقة.
- والتمسك بالشريعة (القرآن والسنة).
- والنظر إلى العالم بعين الاعتبار.
- التحلي بالحلم.
- العفة.
- التحلي بالصدق.
- الزهد بالدنيا.
- التعبد.
- الذكر.
- والتفكر. (إبراهيم حقي الأرضرومي، معرفة نامه، ص، ٣٢٢)

والخلاصة؛ يبين لنا إبراهيم حقي ـ قدس سره ـ أن الأعمال السيئة تقفل على هذه النقطة السويداء وتعطل حركتها. ولإزالة هذا القفل عن نقطة السويداء وإعادة تفعيل وظيفتها من جديد لا بدّ الإقبال على الأعمال الصالحة. فكما ورد في الحديث النبوي كل ذنب يذنبه الإنسان يجعل على قلبه بقعة سوداء. (انظر: ابن ماجه، الزهد، ٢٩؛ ابن حنبل، المسند، ٢، ص، ٢٩٧)

١٢) إن نقطة السويداء مرآة الوجود. فهي تتلقى الفيوض من الله عز وجل، ومركز للأمر (أي الروح) كما تطرقنا إلى ذلك سالفاً. وصاحب الأمر (الروح) وهو الله تعالى مع هذا الأمر (الروح). وهذه المعية هي إحسان وعناية وعون. وإن الآية القرآنية:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ﴾ (الإنسان: ٣٠) . تشير إلى هذه المعية والعون (الإذن). وكذلك فإن آية:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (الحديد: ٤) . تدل على أن صاحب الأمر مع الأمر دائماً على صورة هداية.

وتُعد آية: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (الحديد: ١٦) دليلاً آخر على هذه المعية. (إبراهيم حقي الأرضرومي، معرفة نامه، ص، ٣٢٣- ٢٤)

يمكننا القول أن ما يراد بيانه في هذه الأدلة وباختصار هو أن الله تعالى في نقطة السويداء هذه، أي هذه النقطة التي يُذكر فيها، وأنزل عليها الوحي، بحالة تواصل أكيد مع الإنسان.

وكما يتبين مما تقدم فإن إبراهيم حقي ـ قدس سره ـ قد حاول بيان ماهية نقطة السويداء من خلال اثني عشر بنداً.

وإذا أردنا أن نورد ذلك مختصراً فيمكن القول: يبدو من خلال ما ذهب إليه إبراهيم حقي ـ قدس سره ـ أن نقطة السويداء الموجودة في كل إنسان والمتحررة من قيود الزمان والمكان تتمتع بالخصائص الآتية:

فنقطة السويداء:

١- روح الكون كله.

٢- المكان الذي تشرق عليه شمس المعنويات التي هي عرش عالم الإنسان.

٣- مرآة للنقطة الكبيرة التي هي مكان خروج روح الإنسان.

٤- تظهر عظمته عند استواء السر (عند سر الاحتواء).

٥- وسر استواء نقطة السويداء مجرد بعيد عن الأشكال والألوان.

٦- نقطة السويداء مرآة النقطة الكبرى، وتظهرها بشكل تام. والنقطة الكبرى هي العقل الأول والروح الأكمل (روح الله ﷻ). (ونفخت فيه من روحي).

٧- إن سر نقطة السويداء الحقيقة الإنسانية.

٨- نقطة السويداء تشبه الكلمة. والكلمة هي النقطة التي تجمع كل الحقائق وتضعها مع بعضها في بوتقة واحدة. أي أن نقطة السويداء الحقيقة الجامعة.

٩- ومكان ومركز الروح التي تعود إلى عالم الأمر هو نقطة السويداء. أي أنها مركز حياة "الأمر".

١٠- نقطة السويداء مستديرة تشبه مرآة مصقولة ذات وجهين.

١١- تتلطخ نقطة السويداء وتتسخ بالذنوب، وتُجلى وتُنظف بالأعمال الصالحة.

١٢- نقطة السويداء مرآة الوجود. وتتلقى الفيوض الآتية من الله تعالى.

كما قلنا في البداية؛ إن مفهوم نقطة السويداء مفهوم معقد للغاية، وشرحه وبيانه وفهمه أمر بالغ الصعوبة. فالقلب مبهم.

ونقطة السويداء هذه قائمة عند باب هذا القلب المجرد، فهي مجرد المجرد. وإذا كان من الصعوبة فهم القلب المجرد فهماً كاملاً، فكيف ستتمكن من فهم نقطة سويداء القلب التي هي أكثر تجرداً وإبهاماً منه؟. فالأهم هو وكما قال البورسوي أن الإنسان بحقيقة نقطة السويداء سر الله ﷻ، والله تعالى سر الإنسان.

فساد العقائد يقود إلى جهنم

جمال نار

يقول الوليد بن عبادة بن الصامت:

"دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت:

يا أبتاه، أوصني واجتهد لي. فقال:

أجلسوني. فلما أجلسوه قال:

يا بني، إنك لما تطعم طعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره!. قلت:

يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال:

تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"إن أول ما خلق الله القلم. ثم قال له: اكتب. فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة".

يا بني، إن متَّ ولستَ على ذلك دخلتَ النار". (ابن كثير، التفسير، ٤/ ٢٦٨)

لقد توصل مذهب أهل السنة والجماعة إلى المبادئ والأصول الصحيحة للإيمان والعقائد وثبتوها في مصنفاتهم وكتبهم. وقد استغرق هذا الأمر قروناً من الزمن. وظهر الكثير من الآراء والأفكار والاتجاهات والفرق بشأن القدر، وقيل فيه الكثير من الكلام البعيد عن المنطق، والضال. وإن من بين هذه التيارات والفرق فرقتان ملفتتان للنظر وقعت إحداهما في الإفراط، والأخرى في التفريط؛ ويُطلق على إحداها القدرية، وعلى الأخرى الجبرية.

لقد كانت هذه المسألة قد انقضت وأصبحت من الماضي منذ زمن طويل. ولكن مع الأسف يقوم اليوم بعض العلماء والمشايخ بإثارة هذه المسألة مرة أخرى وكأنها "جديدة"، ويعيدون بث الحرارة في هذه العقيدة ويضعونها أمامنا وكأنها "صحيحة". وبالجدالات والنقاشات العقيمة التي تسود بينهم ومن ثم تنعكس على العامة تضيع الجهود هباء، وتفسد الألفة والمحبة، وتتفكك الوحدة، وتسود الفرقة والتنابذ. إننا نفهم على بعض هؤلاء، ولكن بكل أسف هناك الكثير ممن لا نفهمهم.

ترى إلى ماذا يهدف هؤلاء العلماء الذي نشاهد لهم جهوداً مخلصة لأجل الإسلام، في الحقيقة لم نعرف ذلك!

دعونا الآن نلقي نظرة سريعة ومقتضبة على هاتين الفرقتين. ولنعلم أن هذه الجدالات قديمة وقد انتهت منذ زمن بعيد.

إحدى هذه الفرق هي القدرية. وهذ الفرقة تنكر القضاء والقدر كلية. ولكن لا يمكن نسب أهل هذه

الفرقة إلى الكفر لكون فعلهم بقصد تعظيم الشرع الشريف. وقد بلغ الأمر بهؤلاء إلى حد القول أن "العبد يخلق أفعاله بنفسه"؛ ولهذا فقد تعرضوا لنقد وهجوم شديد من قبل علماء أهل السنة. وبالأخص علماء بلاد ما وراء النهرين فقد أبدوا تشدداً وحزماً في هذا الباب، وقالوا: "إن أحوال المجوس خير من أحوال القدريين".

رغم أن أتباع المذهب القدري بدأوا بالاعتقاد بالقدر فيما بعد، إلا أنهم كانوا يعتقدون أن الخير من الله ﷻ، والشر من غيره، فلم يستطيعوا بذلك التخلص من التشبه بالمجوس الذي يؤمنون بعقيدة الإلهين.

وأما الفرقة الأخرى فهي "الجبرية" مذهب البدع. وهؤلاء على عكس القدرية، حيث يقولون: "إن كل شيء مرتبط بالقضاء والقدر. وليس بيد العبد شيءٌ. فالله هو خالق الفعل، والاختيار، والقدرة". ولأنهم لا يقرون بالإرادة الجزئية للعبد فإن العبد حسب رأيهم غير قادر حتى على الإيمان بإرادته. فعندهم من شاء الله إيمانه آمن، ومن لم يشأ الله إيمانه كفر.

يبدو أنهم في الوقت الذي يعملون فيه بحسن نية على تنزيه الله تعالى، ينحرفون بسبب ضحالة معرفتهم وعلمهم إلى التفريط، فينسبون الظلم إلى الله دون أن ينتبهوا.

فإن لم يكن للعبد حرية اختيار كما يدعون، ألن يأتي أبو جهل معترضاً على الله بقوله: يا رب! ما ذنبي أنا؟ فأنت خلقتني كافراً، فكفري يعود إليك وليس إلي، إذ ليس لي من الأمر والاختيار شيء. فأنت كما شئت خلقت، وأنا عملت كما شئتَ. فلم تعذبني؟ أليس هذا بظلم؟.

اصفعوا وجه من يعتقد بذلك صفعة قوية. فإن صرخ: لم صفعتني؟ فقولوا له: هذا قدري الذي كتبه الله علي، فماذا أفعل أنا؟

فهل برأيكم يقبل ما تقولونه له؟.

أي المجتمعات أعظم حضارةً؟

إذا نظرنا في ماضينا الذي كانت تسود فيه الأخلاق الإسلامية، سنجد أن فقراء الناس وأغنياءهم كان يرأف بعضهم ببعض، فقد كان يعيش الغني والفقير في البلدة نفسها في طمأنينة وسكينة دون أي فروقات في التجمَّعات والأحياء السكنية، وكان كل حي مأوى للأرامل واليتامى والمساكين، فإن كان ثمة مريض في البيت، وُضِعَت ورود حمراء في شرفة المنزل، كي يمر الباعة من أمام البيت دون إزعاج، ويلعبَ الأطفال في مكان آخر.

لقد كان ذلك السلوك نتاجَ تربية عظيمة، فأي مربٍّ اليوم أو أي عالم نفس أو عالم اجتماع يستطيع أن يضع أمامنا مثل هذه التربية؟

إننا نجد اليوم في حفلات الزفاف والأعياد مجموعةً من الناس إذا أرادوا أن يستمتعوا أطلقوا الألعاب النارية، غير آبهين بالمجتمع من حولهم، ولا مراعين لأحوال الرضَّع ولا الحوامل ولا المرضى ولا المكروبين.

فهذا هو الفارق في الإنسانية والرقي في المجتمعَين...

إنها نتيجة مؤسفة لسنين قضاها الناس في انحلال ثقافي وحضاري...

ثلاث عجائب

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾

(الإسراء: ٧٠)

من الأمور التي فُضِّل بها الإنسان على سائر المخلوقات الأخرى إكرامه بصفات معينة مثل: العقل، والقلب، والمنطق، والبصيرة، والإدراك، والروح. وبذلك يستفيد الإنسان من ثلاث عجائب منفصلة يفسر بعضها بعضاً، ألا وهي:

١. ماهية الإنسان، ولبه، وجوهره.

٢. كتاب الكون.

٣. كلام الله ﷻ المتجلي في آيات القرآن الكريم.

وقد أُعطِيَ الإنسانُ العقلَ كي يتدبر هذه الأسرار والحكم الإلهية ويتفكر فيها.

ولذلك كان أول أمر يصدر عن القرآن الكريم أن:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١)

ولما نزل هذا الأمر الإلهي على النبي عليه الصلاة والسلام كان وحيداً في غار حراء يتفكر ويتأمل؛ أي إن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام الذي كان قلبه ينفطر ألماً وحزناً من ظلم الجاهلية وظلماتها كان يحمل معه بعض الزاد ويعتزل الناس في الغار، ثم يتأمل من هناك الكعبة المشرفة، ويُريح نفسه بالتفكر العميق لأيام ولياليٍ.

وكان قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١)

يشير إلى أن المهمة الأولى إنما هي التفكر، لأن التفكر وسيلة لكل شيءٍ، من إيمان وعبادة وأخلاق....

(من كتاب مدرسة التفكر-الكون والقرآن والإنسان/ عثمان نوري طوبّاش)